رواية

علي الشدوي

حياة السيد كاف



طوى
للنشر والإعلام

حياة السيد كاف

رواية

علي الشدوي

طوى

Book: ALKAFAN MODAWENAT ALJASAD ALMAIET
الكتاب: حياة السيد كاف
Author: Ali Alshadwy
المؤلف: علي الشدوي
Third Edition 2008
الطبعة الاولى ٢٠٠٩

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM
com.Email: tuwa@london
TEL: 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع: منشورات الجمل
©Al-Kamel Verlag 2009
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.d

«أحلف لكم بأغلظ الإيمان أيها السادة أن الإسراف في إدراك الأشياء والشعور بها مرض حقيقي. مرض كامل. إن إدراكا عاديا هو من أجل حاجات الإنسان أكثر من كاف. إن نصف الإدراك أو ربعه... أكثر من كاف... إنني مقتنع اقتناعا جازما بأن زيادة الوعي ليست وحدها مرضا، بل إن كل وعي مرض».

ديستويفسكي
قبوي

(1)

في مقهى (star bucks) التقيت به أول مرة. ذهبت إلى هناك؛ لأنني كنت على موعد مع إحدى الصحفيات. هي صحفية جميلة لكنها عنيدة. وأعتقد أن السبب الذي جعلها تهتم بي هو أنها أرادت أن تعيش حياتها الخاصة بعيدا عن الصحفيين والمثقفين. كنت فرحا لأني سأجلس مع صحفية بدأت تهتم بي مثلما بدأت أنا أهتم بها.

آنذاك لم أكن مهتما بالكتب، وقد اقتصرت قراءتي على منتديات الإنترنت الثقافية. لا أستطيع أن أحدد ما الذي جذبني إليها، أو أن أصف ما شعرت به حين قرأت أول مرة تعليقاتها وردودها على مشاركات الأعضاء. وحتى هذه اللحظة لا أعرف اسما لذلك الشعور. أو بالأحرى لا أستطيع أن أميز ما إذا كان حدسا أم تعرفا أم شيئا لا يُعرف كنهه، وفي استطاعته أن يهيج غرائز الآخرين. حتى الآن لم أكتشف ذلك الشيء الذي جاء فجأة ومن غير لغة. لا أعرف أيضا كيف تتالت الأحداث، وتداخلت الصدف، ورُسمت الخطط؛ لأجد نفسي وأنا أحادثها.

لم تفاجأ فقد قالت لي

ـ أعرفُ، من غير أن أعرفَ، كيف عرفْتُ.

في تلك المحادثة، وبما أننا كنا عضوين باسمين مستعارين، فقد كشفنا عن اسمينا الحقيقيين. وبعد أخذ ورد اتفقنا على أن نلتقي في مكان عام. تركت لها الخيار فاختارت مكتبة تجارية. كان لقاء تعارف، وقبل أن نفترق أعلمتني أنها تذهب أحيانا إلى (star bucks) لذلك اقترحت علي أن نلتقي هناك.

التقينا خارج المقهى، ودخلنا معا. عندئذ شاهدنا مجموعة مختلطة من النساء والرجال متحلقين حول طاولة. لم أكن أعرف أحدا منهم، ولولا شعوري بحرجها منهم لما لفتوا انتباهي.

لاحظت أنها تتجنب النظر إليهم، وبعد أن جلسنا بدا أن كل نظرة عابرة تجاههم، وأدنى حركة تقوم بها، تبدو كما لو كانت إشارة تكشف سرها.

إلى هذا الحد استولى عليها القلق. لأنها ستهدأ فيما لو اقتربت من مصدر القلق؛ اقترحت أن ننضم إليهم، وأن تقدمني على أنني صحفي. ولأنني لم أكن أعرف عما تتحدث، فقد أشارت إليهم ووصفتهم بالمثقفين. انضممنا إليهم وأنا في غاية الحنق، ذلك أنني جئت لكي أجلس معها، لا أن أجلس مع مثقفين وصحفيين.

بعد أن قدمتني أشارت إلى أحدهم.

ـ الأستاذ (ك).

لم يكن اسمه غريبا؛ فهو يكتب في المنتدى الذي أنا عضو فيه. المفاجأة هي أنني لم أكن أعرف أنه يسكن في مدينتي، وفي آخر مرة

عرفت من بعض أعضاء المنتدى أنه يعيش في مدينة أخرى. كنت قد قرأت بعضا من قصصه، لكن في ذلك الوقت كنت مهتما بما يكتبه الأعضاء النساء، ونصوصهن ذات الإيحاءات الجنسية؛ لذلك لم يكن يهمني ما يكتبه. هكذا إذن وبمحض الصدفة وجدت نفسي جالسا إلى جانبه.

لا أتذكر كيف بدأ الحديث. لكن أغرب ما أتذكره الآن، حديثه عن المرأة التي تزوجها، وكيف هرع إلى الجيران بملابسه الداخلية.

قال:

ـ اكتشفت أنني تزوجت مختلة.

ترك أفكاره تخرج بحرية. لم يكن يفكر تفكيرا منطقيا، بل أشبه بنشاط لم يستطع عقله أن يسيطر عليه. يبدو أن كل شيء في ذهنه اختلط بكل شيء.

قال:

ـ لا بد من أن تكونوا معي لكي تصدقوا ما حدث. في البداية لاحظت عليها تصرفات غير طبيعية، لكنني ظننت أن فرحة لقائنا الأول شتتت عقلها، بعد أن أغلقت الباب، خلعت ملابسها واندفعت نحوي. طرحتني أرضا، ثم شرعت تلتهم جسدي كحيوان مفترس، لم تكتف بذلك، بل راحت تطلق صرخات غريبة، فخرجت مسرعا وأنا أصرخ طالبا النجدة.

ما الذي جعلني انتبه إلى أن المقهى كله صامت؟ الهمسات التي سمعتها، والضجيج الذي انحسر، حينئذ أدركت أن صوته مرتفع.

قال:

ـ امرأة تبدو أسن مني وأضخم؛ حتى أن ابنتي حسبتني ابنا لها، ولكي أقنعها؛ ظللت لفترات طويلة أشرح لها بأنني أبوها لا أخوها، ومع ذلك لم أستطع أن أقنعها؛ فقد ظل تآلفنا عند الطفلة غامضا ومعقدا وبلا معنى.

كان يتجول بلا رقيب بين الأفكار والملاحظات والذكريات. دفعات من كل ما هو موجود وطارئ في ذهنه. كان صمتنا فضاء مثاليا لأفكاره المسموعة؛ لأنه يغذي تفكيره باستمرار.

قال:

ـ تحملتها لأنني كنت أفكر في مصير ابنتي، وهو ما لم تكن هي تفكر فيه، ما إن يحدث بيننا خلاف حتى تتركها وتذهب إلى أهلها. أكثر من مرة وجدت نفسي وحيدا مع طفلة لا أعرف كيف أتعامل معها، لم أكن أعرف كيف ألبي حاجاتها، ولا كيف ألعب معها، اللعبة الوحيدة التي كنت أتقنها هي أن أمشي على يدي ورجلي، وأصدر أصواتا جشة تفزعها.

لم يكن يعي ما يقول. أو لأقل كما لو أن عقله هجر كل تفكير منطقي.

قال:

ـ لعدة سنوات، و قبل أن أنام تتحول اللحظات إلى عذاب. هل كانت عذراء؟ لم أكن أعرف. أقول لنفسي: لقد دلفت إليها بمنتهى السهولة كمن يغرس دبوسا في إسفنج. أحرقت الأسئلة ذهني: لماذا

لم تتمنع؟ أين الدم الذي يقولون؟ كيف انتهت ببساطة لحظة سمعت أنها معقدة؟ أين خفر العروس؟ تعبت من هذه الأسئلة ففضلت الاحتفاظ بها كسر لا يخص أحد سواي.

ما إن وعى فجأة ما كان يتحدث عنه حتى توقف. بعدها راح يمزمز سيجارته ببطء. وقد كشفت لي نظرته عن استغراقه التام في التفكير. لم أكن أعرف فيما يفكر، لكنني أدركت مغزى شراهته في التدخين؛ لا بد أنه يفكر في أمر عسير، وطالما هو راغب في الصمت، فعلي أنا أن أصمت.

المثال النموذجي لطبيعته، هي لحظات الصمت التي تتخلل حديثه، ونظراته العميقة التي تجعل الإحساس بالطمأنينة مجرد وهم، أمام قلق بأنه يمكن أن يتحول في لحظة. فكرة أنني غير قادر على تثبيت عيني في عينيه أغرقتني في حالة من الذهول، أحيانا أخرج من ذهولي مثل أبله حسن المنظر، أما أغلب الأحيان فأكون أمامه كفريسة مخدرة أمام مفترسها.

الانطباع الذي تبقى من ذلك اللقاء، أنه أذهلني بتقلب مزاجه، باندفاعاته غير المعقولة التي تنقله في لحظات من الغضب إلى اللامبالاة، بعيش ما يقوله كأنه الحقيقة من غير زيادة أو نقصان، بالتقاطه الأشياء التي اختلطت بعضها ببعض في ذاكرته.

شيء آخر بقي، هو صورته الغريبة. تلك الصورة الخارجة عن مجال خبرتي، لكن من جانب آخر ثمة شعور انتابني بأنني قد رأيته، وسبق أن عرفته. وقد رافقني هذا الشعور طوال تلك الجلسة وبعدها.

لم أكن أستطيع تخمين أي خيط يشدني إليه، وكل ما أعرفه أن عالمه هو عالمي.

منذ تلك الجلسة أصبحنا نلتقي. حينها أحببته. لأن القدر شاء أن نكون صديقين. ما كان لي أن أغير ما هو مكتوب. لقد راقت لي فكرة أن يكون صديقي، لذلك تركت ما هو مكتوب ومقدر لينفذ. لو عرفت هذا، حينما كنت ذاك المستمع المشدوه، لربما فررت من صداقته.

هناك شعور انتابني من أول جلسة وتأكدت منه فيما بعد؛ إذ عرفت عن قرب أن حياته تعسة وشاقة. لم يحظ فيها بأي استقرار سواء على المستوى المادي أو المعنوي. أسلوبه في الحياة صعب ومعقد، ولم يستطع أن يتآلف مع الأساليب السهلة والمألوفة. لم تحظ موهبته بأي اعتراف، وتعرض للاستهزاء من خارج وداخل الأصدقاء. رفضت قصصه ودراساته ومقالاته، ولم يدع لأي مناسبة ثقافية.

كان يشبه تلك الشخصيات التي يصادفها القارئ في روايات (دوستويفسكي) حينما يبلغ إحساسه بالمعاناة أقصى مداه كما لو كان في رواية (الجريمة والعقاب) يصل إلى الفكرة (الدوستويفسكية): انغماسه في المعاناة، قبوله العالم قبولا مرَضيا، في الوقت الذي كان يفعل ذلك احتجاجا عليه. ضميره المرتاح، لكنه الضمير الذي يستمد راحته من اعتقاده من عدم وجود أي ضمير مرتاح. روحه المعقدة كون الشر عنصرها الجوهري، وعيه العميق، وكفاف إرادته وشعوره عن المسؤولية بالوجود. غرقه في لا وعيه بحيث لم يعد هناك مجالا

للوجود، وابتهاجه بصراعاته الداخلية العميقة. باختصار: يأسه واصطدامه بطريق مسدود.

لذلك ترك نفسه عرضة للخيبة حيال واقع يبدو محبطا، واهتدى إلى أن في وسع مخيلته أن تصور له ما يريد في مشاهد لا تنتهي. هذا العاشق الأفلاطوني المتسامي الذي لم يلتق يوما بموضوع حبه، والذي تمتع بنوع من الرؤية أهلته لأن يكتشف أعمق ما في نفسه. أن يتعرفها على غرار (أوديب) الذي تكشفت له ذاته مرة واحدة وبعمق؛ ليكتشف أنه قتل أباه وتزوج أمه وأنه حاكم المدينة. هي معرفة تتضمن خطر الجنون، معرفة حادة ومريعة، اكتشاف ما من إنسان يستطيع أن يتحمله.

الآن حيث يرقد. كيف ولماذا وصل إلى هناك؟ سأبدأ من الحياة التي تحوي لحظات خيرة و شريرة لا تحصى. إن اللحظات التي لا تفارق ذاكرتنا هي غطسات الروح السريعة، تخلص من الشوائب كلها بحيث لا يبقى إلا الجوهر الذي في رحمه لحظات كل الناس.

لذلك لم يتعرض هذا الكتاب إلى العديد من الأمكنة والأشخاص والمشاهدات والانطباعات؛ وذلك لأسباب أحتفظ بها لنفسي. إن بعضها من الأسرار وبعضها شائع ومتداول، ومن هذا كله تهمني لحظة واحدة لا غير، لحظة كاملة أرفع مستوى من كل الوحدات الزمنية التي نعمل بها، لحظة تحوي قوة هائلة بلا هيئة أو شكل، لذلك لن أحكي من أيامه ولياليه إلا ما يجعل تلك اللحظة واضحة ومفهومة.

(2)

عندما كنت أنصت إليه وهو يتكلم، لا أستطيع أن أتجنب إحساسا بالحنين إلى الكثير الذي لم أعرفه، إلى كل ما قرأه ولم أقرأه. في إحدى الليالي، وهو يتحدث معي عن مخطط أولي لكتاب سيصدره، . لم أفهم ما كان يتكلم عنه، ومع ذلك واصلت الإصغاء بفضول واهتمام أكثر من أي وقت مضى. يبدو كلامه عن فكرة الكتاب فارغا إلى حد أنه مقنع.

سألني

ـ هل تحمل قولي على محمل الجد؟.

وأنا آخذ وقتي للعثور على الكلمات المناسبة. قال

ـ أجل.

اعترتني رغبة في أن اسأله: لم تجيب أنت؟. إنني أفكر. نعم (أنا أفكر).

هل هذا فعلا ما كان يحدث آنذاك؟ الفعل (أفكر) والفاعل (أنا).

الآن أتساءل: هل تأتي الفكرة عندما تريد هي؟ أم عندما أريد أنا؟ كل

هذا له علاقة بتحويل الفكرة وتشويهها. تلك كانت أفكار (نيتشة) التي لم أكن قادرا على عرضها آنذاك.

قال

ـ سيتضمن الكتاب ولو بشكل جنيني فكرة أن يكون القارئ كاسبا لا خاسرا.

وهو يتحدث عن هذه الفكرة، دلف إلى أجواء جديدة. هيئته جذابة، أميل إلى أن يكون طويلا. متماسك وذو تركيبة جسمية متناسقة. حينما يضحك يهز نفسه قبل أن يظهر صوته.. أخ.خ.. خ.. لكنه ينهي ضحكه فجأة، كما لو أنه تذكر أنه يضحك، وهو لا يجب أن يفعل ذلك.

سألته:

ـ لماذا تسمي قصته الأولى (المصيدة)؟.

قال:

ـ لطبيعة المصيدة التي عادة ما تكون غير ظاهرة، أو مندمجة في الأشياء المحيطة بها، ومتكيفة معها؛ لتقع فيها الضحية. لا بد من أنك قرأت القصة.

قلت:

ـ ألقيت عليها نظرة، لكنني لم أقرأها بمعنى القراءة.

قال:

ـ اسمع.. ثم قرر بنفسك أن تقرأ أو لا تقرأ. عن قراءته وهو

طفل؛ كتب (البرتومانقويل) في كتابه «تاريخ القراءة»: «كان كل كتاب أقرؤه عالما قائما بذاته ألجأ إليه. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف تمام المعرفة أنني لن أستطيع اختراع مثل تلك القصص والحكايات التي كانوا يؤلفها كتابي المفضلون، فإنني كنت أشعر بأن آرائي كانت متطابقة مع أفكارهم».

قلت:

- ما علاقة ما قاله بما سألتك عنه؟

كانت الطريقة التي يشرح بها، توضح لي أي نوع من الكتب يتمناه.

قال:

- على العكس مما قال (البرتومانقويل) فقد نمت في ذهني فكرة الكتاب من قدرات القارئ التي تجعله يستطيع أن يخترع القصص، ويؤلف الحكايات، و يتحرر من اختراعات الكتاب.

تنحنح، ثم تابع:

- وعن السبب الذي جعله يرفض نقل روايته «مائة عام من العزلة» إلى السينما قال (ماركيز) للمشاركين في ورشة السيناريو التي كان يقيمها: «أنا أعتقد بأن من يقرأ رواية هو أكثر حرية ممن يشاهد فيلما. فقارئ الرواية يتخيل الأمور مثلما يشاء: الوجوه، الأجواء، المناظر، .».

شعرت أنه يوجهني إلى مسار معين، وبالرغم من عدم قناعتي، إلا أنني اندفعت في المسار.

قلت:

ـ تعرف، أحلم برواية يؤلفها القارئ، لكن دون أن أعرف كيف.

قال:

ـ أنت تخلط بين الفكرة وبين التنفيذ.

قلت:

ـ أي خلط؟.

قال:

ـ تحلم برواية يؤلفها القارئ، هذه فكرة، ودون أن تعرف كيف، هذا التنفيذ. وما أعتقده: أن الفكرة أو المبدأ، لا التنفيذ، هو ما يعطي أي كتاب أهميته الإبداعية.

قلت:

ـ لم أفهم.

قال:

ـ على العكس مما قاله (ماركيز)؛ فقارئ الكتاب الذي أفكر فيه لن يتخيل القارئ الوجوه والأجواء والمناظر، بل يؤلفها. يوجد قصص فقط؛ و لكل قصة وجوهها وأجواؤها ومناظرها التي تختلف عن الأخرى. أما ما يشكل من الكتاب (رواية) فمتروك للقارئ وخياراته الشخصية.

قلت:

ـ طموح أي روائي أن يكتب أفضل مما كتب سابقوه.

قال

ـ لقد قرأت شيئا عن هذا في كتاب ما.

صمت كما لو كان يستحضر عبارة من ذاكرته

قال

ـ ليس هذا فحسب، بل أن يرى ما لم يروه، وأن يقول ما لم يقولوه.

قلت

ـ أعرف أن القارئ، ومنذ الصفحة الأولى سيشعر بالكتاب، وسيتساءل: هل سيحبه؟ هل سيستمر في قراءته؟ أم سينحيه جانبا. أحد ما على ما أتذكر كان يقول: هذا الكتاب لم يؤلف لي.

قلت هذا آنذاك؛ لكي أوقف هذا الذي لا أعرف كيف سيكون، أما وقد قرأت قصة (المصيدة)، فهل كنت ذلك القارئ؟. ربما. لذلك أنصح القراء المستعجلين، وقليلي الصبر، والذين لم تعجبهم حذلقة (ك)، والتواقين لاختبار قدراتهم، أنصحهم بأن يقرؤوا قصة (المصيدة) بعدها بإمكانهم أن يقرروا ما إذا كانوا سيقرؤون هذا الكتاب أو لن يقرؤوه، ما إذا كان سيؤلفون الرواية أو لن يؤلفوها.

تخطيطات علاقة

. . . .

المصيدة

دخل المنتدى فوجدها ضمن قائمة المتواجدين. هي هناك، جالسة وصدرها يرفع قميصها الأحمر، وهو هنا يهز قدمه اليمنى، وفي الخلفية شعر كل واحد منهما أنه يعرف الفكرة التي يفكر فيها الآخر، ويسمع طنينها، حتى أن أفكارهما التي ظلت منذ ساعات حبيسة رأسيهما يسمعان دويها الآن.

قال يكلم نفسه:

ـ أحب خيال هذه المرأة.

وقالت تكلم نفسها:

ـ هذا الرجل يقلقني ويجعلني أضطرب.

شعر كل منهما بالآخر قبل أن يراه، شيء مادي وكأنه وضع يده على كتفها. ثمة آخر في كل واحد منهما. هي تفكر من خلاله، ويفكر هو من خلالها. إلى حد أنهما فهما ما يعنياه. سمحت له أن يعيش في داخلها، وسمح هو لها. لم يعد يتكلم كلماته ولا أفكاره،

مثلما هي أصبحت تتكلم بكلماته وأفكاره، وخلال الوقت الذي أمضياه في تأمل اسميهما كان كل واحد منهما الآخر.

حدث هذا بعد أن نشر قصته الأولى (كنز مخجل) التي حكى لي مناسبة كتابتها.

قال:

ـ لقد استوحيتها من مناخ الطفرات الوراثية.

تردد قبل أن يشرح لي.

قال:

ـ أن تشرح لأحد ما من أين استوحيت ما كتبته، يشبه بأن تقول له كيف يجب أن يكون شعوره حينما يرى امرأة، فهذا يختلف من شخص لآخر.

شرع يقرب لي معنى الطفرة الوراثية.

قال

ـ تبدل طارئ حدث في طبيعة الكائنات والمخلوقات. قد تكون الطفرة مفيدة كدماغ الإنسان، أو غير مفيدة كذيل الطاووس.

حين تأكد أنني فهمت، قال:

ـ العالم (RONIN) قال: بالرغم من أن ذيل الطاووس يقيد حركته، إلا أنه محبب عند الأنثى، التي تفضل الطاووس ذا الذيل الطويل والملون؛ اعتقادا منها بأن الطاووس الذي يحمل ذلك الذيل العبء، يؤدي وظيفة التزاوج على أكمل وجه.

وأضاف بهدوء:

- أما العالم (RIDLEY) فقد التقط هذا الخيط ليقول: إن نمو حجم الدماغ الإنساني يُعزى إلى رغبة الأنثى؛ فالأنثى تفضل رجلا بدماغ كبير، لهذا استمرت الأدمغة البشرية في النمو.

بنفس الهدوء، قال:

- حينما قرأ ت هذين الرأيين، اعتبرتهما واهيين إلى أبعد الحدود، فمن يعتقد أن نمو الدماغ الإنساني لا يختلف عن نمو ذيل الطاووس، يغفل الفرق بين أنواع التبدل.

قلت:

- لا يبدو لي هنا أي خيط لقصة

قال:

- لا تستعجل. «الكلمة التي يمكن أن تقال في آخر الكلام، يجب ألا تقال في أوله». قال ذلك كأنه يقرأ من كتاب.

قال

- لقد قرأت شيئا عن هذا في كتاب ما. أنت ألم تقرأ؟

فيما أنا أفكر. قال:

- في إحدى الليالي و أنا أقرأ رواية (الأبله) لديستويفسكي توقفت عند هذه العبارة: «إنك لا تستطيع أن تتخيل الألاعيب التي يمكن أن تدفع إليها الكبرياء. إن هذه المرأة تعدني وغدا؛ لأنني على علمي بأنها خليلة رجل آخر، أرضى أن أتزوجها في سبيل المال صراحة.

ولكنها لا يخطر ببالها أن شخصا آخر يمكن أن يخدعها بطريقة أدنأ؛ كأن يأخذ يحدثها مفيضا عن الأفكار الليبرالية، والآراء التقدمية، وتحرير المرأة، وما إلى ذلك؛ ليجرها بعد ذلك كالخيط عبر ثقب إبرة».

قلت:

ـ ما علاقة هذه بالقصة؟.

قال:

ـ (يخدعها بطريقة أدنأ). هذه الجملة وضحت لي علاقة الأنثى بتطور دماغ الإنسان، وقد فهمت الأمر على هذا النحو: إغراء الأنثى هو الذي لعب دورا حاسما في ظهور أبرز سمات الإنسانية وهو العقل.

لكي يوضح الفكرة؛ قال:

ـ الإغراء يعني أن الأنثى تلمح إلى أن فعلا ما سيحدث من غير أن تجعله يقينا. فهو وعد غير مضمون. هذا ما جعل الرجال الأوائل يطورون الخطط ويحوكون الحيل. تغري المرأة الرجل ثم تتمنع، يحتال ثم يصل إليها، تكتشف حيله فتطور حيلها، وتعود تغريه وتتمنع، وفيما هم يفعلون ذلك، وبفعل التفكير المضني ازدادت أحجام أدمغتهم، وبدؤوا يمشون منتصبين.

بحسب ما حكى لي: فحينما اطمأن إلى الفكرة، سمع ذلك النداء العميق الذي يسمعه القاصون الحقيقيون، الذين يشعرون بالسعادة لحظة ولادة القصة.

قال:

ـ لم أعرف في حياتي لحظة أكثر تنويرا من تلك اللحظة، التي كنت فيها كطفل؛ يعتقد أنه سيقول معنى العالم حينما نطق بأول كلمة.

ما تبقى من شرح حالته انتهى بقوله:

ـ كتبت القصة كما لو كانت تُملى علي، وقفاتي نادرة، ولأنني لم أكتب من قبل بهذه الطريقة، فقد شعرت بمتعة القص، حالة أشبه ما تكون بالتحليق.

إذا صدق في كلامه معي، فقد كتب القصة مع كثير من الأمور التي خطرت في باله: أن تكون لغتها واضحة؛ حتى لا تنشغل عما تريد أن توصله. أن يضع الأشياء في مكانها من القصة حتى تبدو حقيقية. أن تكون قابلة للعرض حتى يمكن لمن قرأها أن يحكيها. أن تبتعد عن الشرح حتى يشعر بها القارئ لا ليفهمها. والأهم أن تتضمن سرا.

موضوع القصة الأساسي هو العلاقة بين المرأة وبين الرجل، والكيفية التي يسمع كل منهما طنين الفكرة التي في رأس الآخر. تلك الفكرة التي تظل حبيسة ثم تخرج، أطلق عليها (الكنز المخجل) ثم وضعه عنوانا للقصة.

بعد أن لخص لي فكرة القصة، رحت أتخيله وهو يقرأ نسختها الأخيرة.

قال:

ـ أعدت قراءة القصة، فوجدت أن عنوانا كهذا ملفتا للنظر، وقصة

لم أبذل أي جهد في التفكير فيها، دليل على أنه «لا يجوز للمرء أن يفكر في كيفية كتابة القصة، أكثر مما يعمل في كتابتها».

صَمَتْ، قلت لنفسي هذه نهاية الحكاية.

لكنه عاد إلى الحديث.

قال:

ـ فكرت: لو أرسلتها إلى صحيفة، أو انتظرت لأضمها إلى مجموعتي القصصية، لن أتلقى ردود فعل مباشرة؛ لذلك أرسلتها إلى منتدى أنشر فيه بين حين وآخر. وأنا أنتظر ما سيقال عنها، حولت لحظات الانتظار إلى ورش عمل ذهنية، مستحضرا كل التفاصيل التي من شأنها أن تصادر أي مفاجأة.

لم أدخل المنتدى؛ لأتأكد من صدق ما قال، لكن إن صدق، فبعد أقل من ساعة توالت التعليقات

. . . .

ـ رائع جدا. استمتعت، وأعدت قراءتها أكثر من مرة.

. . . .

ـ لكل إنسان كنزه المخجل، وخطاياه التي تقع خلف جمجمته ككلب.

. . . .

ـ لحين عودتي. كل التحايا لقلمك الراقي.

. . . .

ـ قصة جميلة، فتحت لي أبواب ذاكرة.

. . . .

ـ استطاعت أن تتجرأ، وتجد لها كنزا. كثيرات عاجزات عن رسم خارطة الكنز.

. . . .

كانت لديه الحكاية التي تناسب كل تعليق.

قال:

ـ وخزني التعليق الأخير فقد وصل إلى قاع القصة ونخاعها. ولأن المنتدى يوفر خدمة البحث عن مشاركات الأعضاء وموضوعاتهم، فقد قرأت كل مشاركاتها، واستخدمت توقيعها للبحث في محرك (Google)، وكونت عنها صورة عامة: أنثى رومانسية. لغتها تقطر بالغنائية. معجمها اللغوي يدور حول الورود والأزهار والحدائق. أغلب موضوعاتها وتعليقاتها تقريظ للربيع. كلمة الربيع هي ملكة كلماتها. الكلمة التي أحاطتها بكلمات أخرى كالزقزقة والحفيف والرحيق وقطرات الندى وعبق الورد.

لم يترك حديثه عندي أي انطباع، كنت أسرح بعيدا، ولم يعدني سوى قوله

ـ حين أردت الخروج، وجدت رسالة منها في صندوق الرسائل الذي يوفره المنتدى لكل عضو.

ـ أضفني سيدي. وتبعت ذلك بـ (messenger).

ما يزيد هذه الحكاية تشويقا، أنه قال:

ـ أضفتها إلى قائمة عناويني.

لم تبد لي حكاية مشوقة فحسب، إنما لعبة عبثية، لكنني تركته يتابع.

قال:

ـ في تلك اللحظة ولدت قصة أخرى، أدخلت فيها فصل الربيع الذي كنت متأكدا أنها تحبه، وطورت تعليقها إلى لغة سرية. تلك القصة التي عنونتها بـ (قلب امرأة) تحكي علاقة بين كائن غير إنساني وبين امرأة، وقد بنيتها على أن المرأة استطاعت أن تخضع حيوانا بعبقها الإنساني المجرد، الذي تنفثه كالسحر من كل خلية من خلاياها.

أكمل كما يليق بقاص محترف.

قال:

ـ ركزت على بناء القصة؛ وليس على موضوعها. وقد بنيتها على صورة الفخ. طرأت لي فكرة البناء وأنا أكتب، ركنت الفكرة في زاوية من زوايا عقلي ريثما تكتمل. وأنا أراجع القصة حذفت وأضفت؛ لكي تكون فخا، مستدلا بتخطيطات أولية نقلتها من كتاب يتحدث عن بنية الفخ؛ فلكي يقوم الفخ بدوره يلزم أن يكون باديا للعيان، وأن يكون خبره غير مخبره. أن يبدو شيئا غير الفخ. طبيعة الفخ أن يكون غير ظاهر لتقع فيه الضحية، أو أن يكون مندمجا في الأشياء المحيطة به متكيفا معها.

توقف لكي يشعل سيجارة، ثم تابع ببلاغة مؤثرة.

قال:

ـ حينما انتهيت من كتابة القصة. هناك شيء ما جعلني غير مرتاح. هل أرسل القصة؟ وفيما أنا أفكر غفوت، ومن غير أن أعرف أنني غفوت، شعرت أنني مستيقظ في غفوتي، وأنني كتبت قصة أخرى عنوانها (قلب امرأة). وفيما أنا غاف وأفكر؛ فكرت في أنني لن أرسل القصة في تلك الليلة، ولا الليلة التي تليها، ولا حتى في الليلة الثالثة. سأنتظر حتى تكتمل ردود الأفعال على قصة (كنز مخجل).

ابتسم لأنه تأكد من أنه نجح في نصب المصيدة.

قال:

ـ ما أريده واضحا، لكنه مايزال بعيدا، ومن أجل أن يتحقق ثمة ترتيب للأحداث يجب أن أتبعه. كنت متأكدا أننا سننام معا؛ ليس مرة واحدة بل مرات؛ لأنني أدرك بحدسي أكثر من إدراكي من تجربتي: أن امرأة فهمت ما أريده من قصة ستنام معي، ليس مرة واحدة بل مرات، طالما عرفت كيف أكتب قصة في كل مرة.

أتت نهاية ما حكاه بشكل مكشوف.

قال:

ـ ولأن هذه فكرتي التي سأطبقها عمليا، فقد أحببت أن أبدأ من لا شيء، أن أخلق شيئا؛ لأراه وهو ينمو، ويصبح كاملا. وبين هذا وذاك ما علي سوى أن أكتب القصة تلو القصة.

القصة التي لفتت انتباهها

. . . .

كنز مخجل

فتحت أبواب ذاكرتها، لكي تشاهد ما لا تسمح لأي مخلوق بالنظر إليه. تاهت روحها في أمكنة غير معروفة، لم تكن تعرف من أين تأتي ذكرياتها، بيد أنها تعرف إلى أي مكان تتجه.

كانت قد تذوقت سعادة لم تعرفها من قبل، وأصبحت الآن غارقة في بؤس حقيقي، أذهلها كم هو بسيط التمهيد للخطيئة وترتيبها، تجاهلت ما أخجلها، واستعدت لأن تقتل بالتجاهل أي أثر لما حصل.

وضعت حطبا فوق جمر خافت، ونفخت فاشتعلت نار ضئيلة، استسلمت للغناء، لتبعث البهجة في حياتها، فاجأها أحد أبنائها وهي تغني، فذابت وتلاشت، واختزلت إلى جسد بلا دم.

غير الغناء أحبت (صالحة) الحكايات. في تلك الليلة حلقت بأطفالها. أي حكايات حكتها! عميقة وعذبة، ومشبعة بالقصور والدور والصيت والغنى، حكايات رفعتهم إلى السماء، وجرفتهم إلى الجحيم، وحركت خوفهم وعواطفهم.

بعد أن أنهت حكاياتها، قامت ببعض التفاصيل: طمرت الجمر، وقلبت الدلة والفناجين، دارت في البيت كمن يبحث عن شيء ما، سألت أطفالها ما إذا كانوا يريدون شيئا، غطتهم متمتمة ببعض الكلمات، ثم خفضت ضوء الفانوس، و تمددت لتنام.

وهي في انتظار النوم استيقظت و قد نامت، عادت إليها ذكرى ما فعلت فهربت إلى الصلاة، و ما إن انتهت حتى استسلمت لمراقبة الفجر الذي يهبط، حيث السماء صافية، وبعض النجوم ما تزال تلمع.

انهمكت في تفاصيل يومية ملزمة: ضحت البقر، أخرجت الضأن و الغنم، أمسكت الشياه و النعاج؛ لكي ترضع صغارها، ثم شرعت في تجهيز القهوة، وحينما اجتمعت مع أطفالها، كانت النجوم قد توارت ما عدا نجما واحدا، هو وحده في تلك اللحظة أمير السماء.

على الأرض أشعرتها العصافير بأنها حية، راقبتها وهي تنفض أجنحتها، ثم تتمادى في نفض ريشها، وفي اللحظة التي تريدها تطير. رفعت رأسها، وتطلعت إلى النجم الذي يومض في الأفق، وأشارت إليه، وإلى الحجل الذي يندفع مذعورا يضرب بجناحيه.

عادت لحظات ذاكرتها ككنز مخجل، طردتها، لكنها أقعت خلف جمجمتها ككلب.

القصة التي أوقعتها في الشرك

. . . .

قلب امرأة

الآن، وأنا أنظر إلى الوراء أشعر بأنني كنت ذلك الطفل الذي يراقب سالم الديك وزوجته. ففيما هما يتهيآن للإفطار سمعا خوار ثور، ثم اخترق المكان صوت دربكة، وفي لمح البصر تحولت الدربكة إلى ثور هائج يتجه نحوهما. انبطحت وعيناها مغلقتان بإحكام ثم فتحتهما، ومن تحت إبطها راحت تراقب زوجها وهو يتسلق السدر، بينما ربض الثور كأنما ينتظر نزوله.

تفقدت نفسها ونهضت ببطء، كانت الإنسان الوحيد الذي ألفه الثور من كل أهل القرية، لم يحدث قط أن أصدر أي نأمة وهي ترعاه أو تسقيه أو تقوده، وما إن يشاهد أحدا حتى يتبدل، لكنها تمسك بخزامه فيهدأ.

من أعلى السدر، راقب جمالها المستخلص من كل طيور القرية، ورآها كملكة النحل متزينة بفستان أصفر وأسود وهي تقترب.

مسحت على ظهر الثور، وتطلعت إلى أعلى.

قالت:

- قولي يا الديك.

أضاف وهو يكاد يموت من الضحك:

- إنه ثور وأمام الثور يا روح ما بعدك روح.

عادا يفطران وهما جزء من مشهد طبيعي، الأرض مفروشة بطبقة سميكة من الأعشاب، أشجار تعرشت وأخرى مدت فروعها في كافة الاتجاهات، الطيور تروح وتجيء ماحية الحدود التي أقامها البشر بين الأراضي الزراعية، السماء زرقاء، تمتد في جميع الجهات كدوائر مسورة بالأفق، وهناك، ليس بعيدا عن الجبل تشكلت غيمة.

مساء ذلك اليوم، باعه إلى أحد أثرياء القرية ليتصدق بلحمه، اقتادته زوجته وربطته في المذبح، لكن رجال القرية عادوا يدعونها لأنهم فشلوا في تكتيفه.

فيما بعد لم يستطع أهل القرية نسيان هذا المشهد: وهي تكتفه، كان الثور يتشمم ثوبها هادئا، وحينما انتهت من تكتيفه أخفت وجهها بكفيها، ثم أجهشت باكية.

القصة التي أشعرتها بدفء جسدها

. . . .

أجمل غريقة في التاريخ

تلفت حولي مندهشا، كأنني أرى للمرة الأولى ما تعودت على رؤيته سنين عديدة، حيث الشمس التي تكسو التلال بغلالة حمراء، والنسيم الذي يحرك أعالي السدور.

استسلمت لذاكرتي، لتقودني عبر دروب القرية، التي بدت كما لو أنها لم تسكن قط.

تساءلت: لم تملكنا الذاكرة؟ ولم نحن عاجزون عن التملص منها؟ أو عن إسكاتها؟ وبينما اختارت ذاكرتي ما يلزمها، واستخدمتني لكي تنجز ما هي عليه، علمت أنني سأسقط فيها بينما أنا أسير، وأنها تجرني إلى حيث لا أريد أن أتذكر.

وأنا أقطع دروب القرية، هبطت بي ذاكرتي إلى تلك اللحظة التي شاهدت فيها وجها يجفف الحديث، ويوقف الكلمات عند حدودها، وجها خجولا، وفاتنا استخلص جماله من كل وجوه النساء التي رأيتها.

ارتبطت معها بعلاقة عميقة لا تنسى: طاردنا الجراد والعصافير،

تمايلنا كي تمسك بي أو أمسك بها، أوهمنا بعضنا أننا سنسقط كي يسند أحدنا الآخر، ملأت فمها بالماء ورشتني، ففعلت أنا كما فعلت، وبدأنا نتطارد، تلبست دور الزوج الغاضب، فأثارت قهقهاتها في نفسي جوا من الارتياح مازلت أفتقده إلى الآن.

من بين كل اللحظات التي تجمعت رغما عني، تذكرت تلك اللحظة التي شاهدتها وهي كقطرة ندى تقفز وتركض فوق الأعشاب الخضراء قرب البئر التي مررت بها، اللحظة التي رمقتني فيها بنظرات خجولة فهممت بالتوجه إليها، لكنها أدارت لي ظهرها ثم غابت وسط غابات من سيقان الذرة.

غابت لحظة ثم عادت، فميزت في صمتها اللغة التي فهمتها عبر قلبي، وأدركت بأن في هذا العالم طفلين أحدهما ينتظر الآخر، كيف أدركنا ذلك؟ لم أكن أعلم، وكانت هي تجهل، تماما كآدم وحواء في الجنة.

استلقينا على بطوننا نراقب ماء البئر فجذبها إليه، محا الماء جمالها واستخلصه لذاته؛ لكي يقسمه على الوجوه التي سيعكسها فيما بعد.

حدث هذا منذ سنين طويلة، وهاأنذا أقف في متصف القرية التي لم يعد أحد يسكنها. رددت في نفسي «بعيدة هي أيام السعادة.. تضيء وتنطفئ.. ترجع إلى الوراء وتحترق».

اتجهت إلى المقبرة التي دفنت فيها. في مكان ما من كياني يترسب الحزن، أسندت جبيني على شاهد قبرها، أتخيل تلك الأيام، وأفكر في وجهها وهي في الطرف الآخر من العالم.

القصة التي أكدت لها أنه يشتهيها

. . . .

حقل الحنطة

كان يمكن أن تصبح حياتي شيئاً آخر، لو لم ألتق بها. الآن أنا بالغ ورجل، والأشياء تبدو مختلفة من هذه المسافة، وحين أعيد النظر، أعتقد أن قدري سيكون قدراً ناقصاً لو لم ألتق بها.

مسألة أن هذه المرأة أصبحت كشجرة منفردة صعقها البرق، محرجة ومن غير كلام حينما حملتني وأنا طفل، أصبحت من الحكايات التي تحكيها أمي. ما لم تعرفه أمي قط، أنني شعرت بجسدها يتلوى ومسامه تتفتح، وأنني فهمت من نبضات قلبها، وتصلب حلمتي نهديها، أنها تتوسل إلي، . كيف فهمت؟ ربما لأن في الأطفال حاسة لا تسمح إلا بدخول بذلك.

منذ تلك اللحظة التي حملتني فيها نسجنا ـ أنا وهي ـ عالمنا الخاص، وكونا لغة خاصة بنا، لذلك حينما ننغمر فيه، أو نختار أن نلجأ إلى معانيه الدقيقة وتعابيره وإشاراته، تبدو أمي في وحدة تامة.

حينما أعود من اللعب، ، وقبل أن أصل إلى البيت، تكون في انتظاري؛ لتطلب مني أن أحدثها عن الحكايات التي تجعلها مرحة.

هناك دائما بعد كل لعبة حكايات مضحكة يعرفها الأطفال الذين يلعبونها.

هذه المرأة تحب حكايات الأطفال الصغار، تريد أن تسمع منها الحكايات التي تضحكها، لا تريد غير ذلك، حكايات الأطفال الكبارلا تحب أن تسمعها، وقد تدربت على ما يمكن أن أحدثها به أو أكتمه عنها.

في أحد الأيام وفيما أنا عائد إلى البيت، ظهرت فجأة كما لو أنها نبتت من الأرض.

قالت:

ـ تعال.

وافقت من غير أن أتردد.

انحرفت بي إلى اليمين، لأجد نفسي في الوادي المجاور لبيتنا، توقفت ونظرت إلى الخلف، لاحظت ترددي فدعتني كي أتبعها، فحثثت السير حتى حاذيتها.

سألتني.

ـ كم عدد أسنانك؟

لم أكن أعرف، فطلبت مني أن أفتح فمي لكي تعدها.

الآن وبعد هذه السنين أتجرأ على القول: إن الشيء الوحيد الذي يرغبني في أن أعود طفلا، هو حينما جرجرتني، ودغدغتني في مكان ما من جسدي؛ ،فشعرت بخدر لذيذ،وحالة جسدية مجهولة.

(3)

قال لها:

ـ «لا شيء في هذه الدنيا غير العشق يسعد الإنسان. لا القصص التي نكتبها، ولا المدن التي نراها. أنا وحيد في هذه الحياة».

قال ذلك وهو يراقب بطرف عقله غلاف رواية (ثلج) التي استدعى منها العبارة.

قالت:

ـ «لا أستطيع. أنا له جسدا وروحا. لست لأحد غيره. أكون لك في الخطيئة. أجل في الخطيئة فقط. تخيل ذلك يا كاتب القصص».

لم تكن عبارتها غريبة؛ فقد نقلها من رواية (خرائط)، وأرسلها إليها (MASSEG).

دار هذا الحوار بين (ك) وبينها بعد شهر من كتابة قصته (كنز مخجل).

ما وصفه لي (ك) في ذلك اللقاء تحققت منه بنفسي حينما قابلتها من أجل فكرة هذا الكتاب؛ أنثى، كل شيء فيها مكشوف: هواجسها وقلقها وفرحها ومتعتها. قاسية لكنها حنونة، عنيفة لكنها

لطيفة، ماكرة لكنها ساذجة. هشة وجميلة مثل زهرة نبتت في حقل. ثمالة عينيها ورحيق شفتيها وندى خديها وسواد شعرها تجعل من يراها يؤمن بأنها مخلوقة من طينة الأرض المخلصة. بشرتها ناعمة ومشدودة، تحيط عنقها بعقد يتدلى إلى ما فوق نهديها البارزين.

بعد شهرين من انتحار (ك) أرسلت إليها رسالة في صندوق الرسائل الذي يوفره المنتدى، وبعد أن تقابلنا سألتها.

ـ ما الذي جذبه إليك؟

أجابت

ـ شعوري الدائم بحضوره لاسيما في الظلام أو وسط الناس. حينما أنام احلم بأنني قتلته، فجأة استيقظ وأنا ألهث، ثم أفكر في أنني أحلم، غالبا لا أعود إلى النوم، بل أتخشب في مكاني إلى الحد الذي لا أستطيع فيه حك وجهي.

في ذلك اللقاء تحدثت معي عن الأثر الذي تبقى من لقائهم الأول. قالت

ـ يرعبني حضوره الذي لا يمكن التنبؤ به، لذلك اهتديت إلى فكرة هي أن أراه دائما، أن أذهب إليه أنا كفراشة تتحدى الموت باحتضانها النار. أعرف أنها فكرة غريبة لكن مهما بلغت غرابتها يجب أن تحملها محمل الجد.

في غياب زوجها المستمر تحملت عبء أعمال البيت المضنية، تشتغل من بزوغ الفجر إلى وقت متأخر من الليل. تحملت كد وتعب

التفاصيل اليومية الملزمة من غير أن تحظى بأي راحة. تذهب كل يوم بابنتها إلى المدرسة. تعتني بها، وتخيط ملابسها وملابس طفلتها. وأعتقد أن مقارنة وضعها الذي حكت لي عنه بالوضع الذي كانت تحتله عند أبيها، فهي في بيت زوجها كسمكة أُلقي بها خارج البحر، كنبتة قلعت من جذورها وجفت تحت أشعة الشمس الحارقة.

قالت

ـ لقد عشت معه بمنأى عن روحي، وفي قطيعة مع قلبي، وبقيت لا مبالية تجاه وضعي.

اعترفت لي بأنها خانت زوجها إلا أنها أحبته، واستمرت تحبه، وقد تعاملت مع حبها له تعاملا بلغت درجته أنثى تراجيدية. وما ساعدها على أن تستمر في حبها له، هو أنها لم تتخيل حياتها أكثر من ذلك، ويقينها أن أي حل إنساني للحب محكوم إما بالفشل أو الموت.

قالت:

ـ هناك شيء واحد كان يبعث في الأسى، هو أنني لم أكن أشعر معه بجمالي ولا بمسرات حبي وهي تشير إلى جسدها السمين بصورة مقبولة ومغرية

قالت:

ـ منذ دلفت إلى بيت زوجي تفكك جسمي، وسمُنت بشكل ملحوظ، بعد أن كنت في البداية مجرد هيكل عظمي.

انفلت حديثنا إلى بعض التفاصيل الجانبية

قالت :

ـ حينما أذهب إلى السوق، وبالرغم من أن الرجال يبدون كما لو كانوا يتجاهلونني إلا أنني أعرف أنني موجودة في منظورهم، في المنطقة التي لا يرونني فيها لكنهم يشعرون بوجودي فيها. حينما أمشي أشعر بأنهم يشعرون بتوتر في شرايينهم ويعيشون سيري بشعور التوتر ذاك. يتحقق انتقالي في السوق بلذة كأنهم يحتلمون بي. يغمضون أعينهم ويصلون إلى ما يتمنون، ويبلغون الذروة حينما أكون هي قد وصلت إلى بيتي متعبة. . . . .

قالت لي هذا، وتوقفت؛ تخمن إلى أي حد يمكن أن تسترسل. المفاجأة التي جعلتني أؤمن بأنها من طينة مختلفة عن طينة النساء هي قولها

ـ لأستلقي وأنام في فوضى حيث ركبتاي مرفوعتان، وساقاي مفتوحان، وعضوي بارز؛ كنت أشعر باحتلامهم.

ولأننا نعود بعد كل تفصيل إلى ذكر (ك) فقد قالت لي

ـ في أغلب الليالي تتحرك الفراشة في داخلي فأطير إليه، وفي كل مرة لا أفهم لماذا أشعر بأن وقتا طويلا قد مر على جلوسه مستندا إلى الجدار.

وأضافت

ـ قبل أن أذهب عادة ما ألبس ملابس ضيقة إلى حد أبدو فيه عارية.

وجهة نظر (ك) فيما كانت تلبسه لخصه لي ذات مرة.

قال:

ـ سلوك تصممه تلقائية أنثى تسخن في الشتاء، فطري كسلوك الحيوانات التي تجد متعة في احتكاك بعضها البعض؛ فإذا ما تلاشت المسافة بين الجسد وبين ما يغطيه، والتصق بجسد آخر فسيدخل الجسدان في ظلام لذيذ، وسيعرف كل منها كل ذرة في الآخر حتى لو كانت معرفة مشوشة ومغطاة.

ما حدث في أول لقاء بينهما رواه لي.

قال:

ـ رفعت ثوبها حتى خصرها لتريني فخذيها. تقرفصت وضغطتني، ثم أبعدتني وهي ممسكة بي لكي أكون مقابلها. لحظات مليئة بالغموض شعرت فيها أن رئتي ممتلئتان، صامتا وكل ما يفصل بيننا قد تحول إلى مادة لذيذة أمتح منها. نهضت لتركض في الغرفة فتبعتها، ثم توقفت لكي تحضنني، وتدس رأسي بين نهديها كأنني في مركز العالم، وتحت تأثير ما شعرت به تهيأ لي أنني أعيش خارجه.

(4)

لم يكن لـ (ك) أي اهتمام بالجنس، وحتى في مرحلته العمرية التي تفترض أن يكون فيها شابا، لم يكن هاجسا مقلقا. بدأ هاجس الجنس مرتبطا بالكتابة.

في إحدى المرات قال لي

ـ الجنس يهمني بالقدر الذي تهمني فيه قصة.

ربما لهذا السبب؛ كتب بعد لقائهما الأول أربع قصص هي «أسماء» و «العجوز الذي يراقب القرية» و «تخطيطات طفولة» و «حرب العصافير». كتبها أولا كجزء من يومياته التي بدأ يكتبها منذ شرع في هذه العلاقة، واستمر في كتابتها. كان تعرفه عليها، والأيام التي أعقبت لقائهما، ومحادثاته معها مرحلة إبداع متدفقة كتب خلالها هذه القصص الأربع التي شعر أنها مرضية ومقبولة.

قال لي وهو يمد لي بها

ـ كتبتها في أربع وعشرين ساعة.

وأنا أقرأ القصص شعرت بأني ضائع، وفي الحقيقة فقد أثرته حينما بدأت أسأل عن التلميذة في قصة «أسماء»، وعما إذا كان العجوزان

في قصتي «تخطيطات طفولة» و «العجوز الذي يراقب القرية» هما جده وجدته، وما إذا كان من أطفال قصة «حرب العصافير».

أذكر أنه قال لي

ـ القصص الجيدة هي التي تضيق الحدود بين الوهم والواقع. تضيقه لتقنع القارئ بأن الناس يوجدون على الكيفية التي تعرضها عليهم. القصص الرديئة لا تفعل ذلك، لا تمحو الحدود ولا تقنع القارئ فتظهر الكذبة.

استعاد القصص وبسطها أمامه.

قال

ـ يبدو أنها ليست جيدة بالقدر الذي يجعلها تقنعك.

قبل شهر من الآن، أعدت قراءة هذه القصص الأربع، بعدها استلقيت لأنام، وأنا أعرف أنني لن أستطيع إغماض جفني، في هذه الأثناء، ولأول مرة فكرت، لا في القصص، بل في القرية التي ولد فيها(ك) والتي تشكل خلفية ثلاث منها. هناك حيث ذهبنا معا ذات مرة، وفي اليوم التالي ها أنا وحدي أمام أمه التي تتمتع بصحة تحسد عليها في مثل عمرها.

حينما رأيتها طفا في ذاكرتي قوله: ـ مرة رأيتها تبكي فانسحبت وأنا أبكي من غير أن أعرف السبب.

ثمة حقيقة أساسية لم أذكرها إلى الآن، وهو حبه واحترامه لأمه. كان يقول:

ـ حينما وعيت حسبتها أخت أبي، وبالتدريج بدت لي أنها لا تعرف كيف تكون أختا، لم تكن تشاكسه، أو ترد عليه أو تعانده، لم أسمعها قط تقول له سأخبر أبي كما كانت تهددني أختي.

ولأنه دائما ما يفلسف الأمور.

قال:

ـ لم تكن قبيحة لكنها لم تكن جميلة أيضا. أفكر الآن أنني لم أنظر إليها في إطار القبح والجمال؛ كأنها امرأة بلا صفات، لقد كان لها سحرها الخاص، وهي تدين بسحرها إلى كونها أمي، ولأنها كذلك، فقد نشأ بيني وبينها منطقة محايدة خارج إطار الصفات، هي أمي كما هي وانتهى الأمر، حتى أنني لم أكن أتصورها أنثى.

في ذلك الضحى حكت لي عن ثلاثة البيوت التي ضمت لتكون بيتا واحدا هو بيت (ك) الذي كنت جالسا فيه. البيت الأصلي بناه جد العائلة. بابه مرتفع، أشعرني بفراغ وأنا أدلف منه، وما إن تجاوزت العتبة، حتى شعرت بأنني دلفت إلى فراغ واسع، وفيما هي تحكي فهمت منها أنه بناه على مقاس جسده الضخم، وأن أهل القرية مازالوا يتناقلون بأنه لا يدخل بيتا إلا بعد أن يطأطئ رأسه، وأن ذلك يبعث الرضا في قلوب خصومه؛ لأنهم رأوه منحنيا.

قالت لي أمه

ـ في آخر حياته خرجت في ساقه اليمنى دملة، وقد رأيته يمد ساقه كي تتغذى منها الغربان.

الحدث الذي ارتبط ببناء البيت الثاني ارتبط بحادثة بدا من كلامها أنها لا ترغب في أن تكشف عنه، أما بيتهم الثالث فقد بني على رابية خضراء تظهر من شرفته القرية.

شرحت لي أن بيتهم لم يكن فارغا من الناس مثلما هو الآن، لاسيما أوقات الضحى، إذ هناك على الدوام وفود من النساء واردات أو صادرات من العين الوحيدة في القرية. ما إن يصلن حتى تعد لهن القهوة، ثم يشرعن في الحديث.

بعد سنوات من تلك الجلسات سيقول لي (ك)

ـ ترى عيونهن غرقى في الألم أو الفرح، لكنهن لم يكن يبكين.

من بقايا تلك الجلسات ظل (ك) يتذكر (رحمة). لم يكن يذكرها قط من غير أن يستشهد بشذرة

«كالوردة من غير لماذا

تتفتح، لأنها تريد أن تتفتح

لا تهتم بنفسها

ولا ترغب في أن يراها أحد».

بذاكرة مدهشة حكت لي أمه كيف كان متعلقا في طفولته بامرأة اسمها (رحمة) وأنها دائما ما تقول لها:

ـ هذا الولد مصيبة.

وقد فهمتُ هذا القول في ضوء ما حكاه لي (ك) ذات مرة.

قال:

ـ ضبطت (رحمة) واقفة مع أحد المعلمين. انسل وتركها فتراكمت على نفسها تبكي، تقدمت إليها ومسحت دموعها بطرف ثوبي.

وأضاف

ـ الأطفال لا يخجلون، الآن لا أصدق أنني فعلت ذلك.

القصة التي أوجعتها
حتى أنها بكت وهي تهاتفه

. . . .

أسماء

في ذلك اليوم دقت باب الغرفة فلم يفتح

قالت أمها:

ـ ربما يكون نائما.

فتحت حقيبتها، وانهمكت تفتش بين الكتب والدفاتر.

انهماكها في البحث عن ورقة ومرسم، منعها من أن تسمع منبه الحافلة التي ستقلها، مرتين أو ثلاث: المرة الأولى نغمة قصيرة سمعتها حينما عثرت على المرسم، والمرة الأخيرة نغمة طويلة نوعا ما، سمعتها في اللحظة التي مزقت فيها ورقة من أحد الدفاتر، وبخط نحيل وباهت كتبت

ـ «بابا . . أنا أحبك».

ودفعتها من تحت الباب.

خلف الباب، سمع حوارهما بعيدا جدا، هناك في الطرف الآخر،

استمع إليه بحواسه جميعها؛ ليثبته في ذاكرته كما سمعه في تلك اللحظة.

منحه الحوار فرصة لأن يستحضر حوارات أخرى، تذكر الكثير من الحوارات والمواقف الحميمية، تذكرها وهي تأتي من نفق طويل، وبينما لف شيء ما عليه، واحتضنه، وضيق الخناق على رقبته، شرع الحوار يأتي ويذهب سريعا كالومض.

حينما ركبت الحافلة، استحضرت كلمات الرسالة، واستمتعت ببهجة طفولية منعشة، تخيلته في سلسلة من الصور: وهو يقرؤها، وهو يطويها ويضعها في جيبه القريب من قلبه، مثلما كان يفعل حينما كانت تكتب له نواقص المطبخ بخطها الطفولي المنمق.

تذكرته وهو يسألها: لم لا تقولي أبي؟ مثلما يقول لها دائما حينما تدعوه (بابا)، ستقول له: إنها تحب كلمة (بابا) أفضل من (أبي) و (والدي) اللتين تعلمتهما من كتاب القراءة والأناشيد.

فيما أحنى عليه هذا الذي لا يعرفه، ينتظر فرصته ليكتم أنفاسه، زحف ليصل إلى الرسالة، أمسكها وهو يئن، لكنه أفلتها فورا؛ لأن ألما وخزه في صدره.

حينئذ أدرك أنه يموت، كان قد شرع ينسى أنه خلف طفلة في أحد الأيام، وأنه أحبها أكثر من أي إنسان آخر، تطلع إلى الرسالة بعينين شاخصتين، تلك الرسالة التي لن يقرأها أبدا.

القصة التي أشعرتها أنها كزهرة تنفجر بالحياة، لا لتعيش، بل لتموت

. . . .

العجوز الذي يراقب القرية

أعلى ربوة خضراء تشرف على مزارع القرية، أخرج أبو سالم كيس (تنباكه)، ولف سيجارة، وراح يدخن في صمت، متلذذا بإخراج الدخان على دفعات. أثناء ذلك لا بد من أنه يفكر: من الذي اكتشف هذا الذي يسمونه (التنباك)؟. لا شك أنه حكيم. أين ينبت؟ سمع أنه ينبت في أراض بعيدة، لم يصل إليها أحد من قريته أو القرى المجاورة.

فيما هو يفكر شعر بأن عقله قد تعلق بأمكنة نائية، وأن في داخله إرادة بعيدة، و في ذهنه خيالا، لكنه غير قادر على التركيز؛ بسبب حركة القرية التي يراها. منحه تفكيره انطباعا بتوقف الزمن، حينئذ شعر بتغير القرية، وأن زمنا طويلا قد مر منذ ولد، وأنه في العالم الآخر منذ سنوات طويلة، وأن ذهنه ينزلق بخفة فوق كل الأشياء.

توصل إلى قرار بأنه غير قادر على حل لغز (التنباك)، أو الوصول إلى تلك الأراضي البعيدة، فنفخ جمرة سيجارته وهو يتساءل: أحقا

ينمو هذا الذي يتحول إلى دخان مثلما تنمو النباتات في مزارع القرية؟.

بالرغم من حالته المزاجية التي لا يرغب الخروج منها، إلا أن الحركة التي رآها اضطرته إلى أن يراقب الرجال وهم يخلعون أحذيتهم، ويتجردون من ثيابهم ويعلقونها على شكل فزاعة، يتحسسون أذرعتهم المفتولة، وعضلاتهم التي تشبه الصخور الضخمة.

وهو يراقب الناس، تحركت في داخله حكمة السنين، وراح يحدث نفسه بشذرات تشبه الفلسفة، شذرات تلمع كالبرق، وتصدق كالحقيقة. كم هو غريب أنه لم يفكر حتى هذا اليوم، في أن هؤلاء الرجال كالزهور البرية التي تتفجر بالحياة، وتعيش وتموت وحيدة.

فيما انهمك في المراقبة، وفي الأفكار التي لا يسمح معجمه اللغوي بتسميتها أفكارا فلسفية، كانت الشمس قد ابتلعت الجبل وظلال الأشجار، وقطرات الندى تلاشت كما لو كانت تقول: الجسد والروح متلازمان، ونتف الغيوم تناثرت فوق صفحة السماء الزرقاء. أثار فيه المشهد أن الحياة جميلة لكنها قصيرة، وأن العالم واسع، بينما عالم الإنسان ضيق.

اعتراه فقدان غير محتمل، وشعور بالإهمال جعل كل عضو فيه ينزف، ولكي يهرب مما هو فيه، وضع كفه فوق حاجبيه؛ كي يميز غبارا بدأ يثور في أنحاء القرية: بقرات وثيران وأغنام، وفتيات يسقن الضأن، والهواء يتلاعب بثيابهن، ويلصقها بأجسادهن.

حينما خفض كفه، كان كل شيء تحته قد تحول إلى حياة: خوار الأبقار، وثغاء الأغنام، والنعاج التي تدفع نعاجا، والخراف التي تنطح خرافا، والصغار التي تبحث عن أمهاتها، والأخرى التي تقفز وتتحرش. وحده أبو سالم و الحيوانات الهزيلة، يربضون ساكنين يراقبون ما يدور بنظرات باردة.

القصة التي أشعرتها بشيء حميمي فيه

. . . .

حرب العصافير

(1)

لأن آباءهم يقولون لهم في كل مرة

ستتفاهم معكم فيما بعد

يعيشون في انتظار لحظة الحساب.

(2)

لا ينامون مباشرة، وأكثر من مرة أفزعتهم ظلالهم الضخمة المرسومة على الجدار، ومع تنامي الوقت طوروا لأنفسهم مخابئ سرية: يلفون أجسادهم ببطانيات مهترئة، ويتركون ممرا ضيقا يراقبون منه شعلة الفانوس الرقيقة، وهي تناضل مثلهم من أجل وجودها.

لم تكن البيوت التي يعيشون فيها تنطوي على أي أسرار، كل شيء فيها مكرر وشائع وعادي، قبل أن يناموا اعتادوا رؤية أمهاتهم يقمن ببعض التفاصيل: يقلبن دلة القهوة، الفناجين، براد الشاي، وطاسة

اللبن، يخفضن ضوء الفانوس، يسألنهم ما إذا كانوا يشعرون بالبول، ثم يتمددن كي ينمن.

(3)

وهم في انتظار النوم

يستيقظون وقد ناموا.

(4)

حينما يستيقظون يثير انتباههم أن آباءهم حازمون في صلاتهم، لم يكونوا مثل جداتهم اللاتي يتكلمن معهم أو ينهرنهم أو يهشين الدجاج أثناء الصلاة، بعكس صلاة آبائهم،لم تكن صلاة جداتهم تنطوي على أية أسرار.

يغسلون وجوههم من بقية ماء وضعته أمهاتهم للدجاج، وفيما هم يلينون ما تراكم على كفوفهم، يتفرق الدجاج المنكمش على نفسه، ينفض أجنحته ويقأقئ فتقفز قلوبهم ويعتريهم رعدة تتسرب عبر أعمدتهم الفقرية، وحينما يجتمعون مع عائلاتهم حول قهوة البن لم يكن من المناسب أن يتكلموا أو يسألوا، عليهم أن يستمعوا ويتعلموا.

(5)

تحت السماء تشعرهم العصافير بأنهم أحياء

تنفض أجنحتها

تتمادى في نفض ريشها

وفي اللحظة التي تريدها تطير

(6)

الأحاديث التي تدور أثناء شرب القهوة تحددها الطبيعة، فإذا كانت السماء ملبدة بالغيوم، تتحدث جداتهم عن السيول التي اجتاحت القرية في أزمنة متفاوتة، هوايتهن تعداد أسماء المزارع التي اقتلعها السيل، لأن الله غاضب من عدم إخراج الزكاة، أما إذا كانت السماء صافية فيتحدثن عن المزارع التي جفت واقتلعتها الرياح، لأن الله أيضا غاضب، لا فرق عندهن بين أن يغضب الله على مزرعة، أو يغضب على مزرعة، حينما يغضب على مزرعة يرسل السيول، وحينما يغضب من مزرعة يحرمها منه.

ومع ذلك فالله رحيم في نظرهن، لكن البشر يرغمونه على أن يغضب، وإذا غضب فإن غضبه كلي، الكون كله يتضافر ليسمح له بجزاء من لا يخرج الزكاة: السماء، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، وحتى الحشرات والطيور التي تحارب من أجل سد رمقها، ويحاربونها حتى لا تبيد الحب، وحينما يصلن إلى هنا يتعوذن من الشيطان ويكررن: إذا كان الله رحيما، فلماذا يسمح بوجود البشر الذين يخرجونه عن صفته الأساسية.

(7)

وهم يغالبون النعاس

يعانون من عشرات البعوض التي تطن وتلسع.
حجمها الصغير يسهل عليها اختراق أي تجويف في أجسادهم
ينتفضون
يحشرون أصابعهم النحيلة في تجاويف آذانهم وأنوفهم
ويحكون سيقانهم بلذة.

(8)

غير الحديث عن الطبيعة تحضر الأحلام كل يوم، آباؤهم يقولون إنهم ينسون أحلامهم، وإن حكوها فتفاصيل أحلامهم غامضة، وحدهن أمهاتهم اللاتي يتمتعن بقدرة هائلة على تذكر أحلامهن، يستحضرنها بزخم يبدو معه أن كل ما يروينه من أحلام تصبح مرئية.

وهن يتأملن في الأحلام، تحاول جداتهم أن يصلن إلى سرها، إلى العلاقة التي لا تمس بين الحلم والواقع، العلاقة التي تتغذى على الأسرار والألغاز، وعلى الدلالات الخفية، لم يكن يخفن من الأحلام التي تنتمي إلى الله، بل من الأحلام التي تنتمي إلى الشيطان، الحلم لغة الله، لكن الشيطان ماكر قد يستعيرها لمآرب خفية.

الأحلام التي تنتمي إلى الله، تعطي السعادة، هكذا يقلن، لكنها ترى مقلوبة: الفقر في الحلم غنى، والذكر أنثى، ما تحتاجه لغة الله هو التأويل، أما الأحلام التي تنتمي إلى الشيطان فهي معلقة، لا يجب أن تروى أو تؤول حتى لا تحدث.

(9)

يضحك أحدهم على جدته

تغذي ضحكته أخته

وسرعان ما يغذي ضحك أحدهما الآخر.

(10)

الانطباع الذي يعزز عندهم كل صباح أن بيوتهم وجدت من أجل آبائهم، الذين يحتفظون بفعل أي شيء في أي لحظة، ومنه قطع حديث أمهاتهم عن أحلامهن، وجداتهم عن تأويلها، لا يستعملون كلمة فظة، لكنهم لا يبتسمون، ولا يستأذنون، بل يشرعون في ما يمكن عمله: جداتهم يبقين مع أخواتهم في البيت، أما أمهاتهم فيستكملن تفاصيل الضحى الملزمة، ثم يحملن الإفطار إليهم في المزرعة، أما هم فيذهبون إلى المدرسة.

فيما هم يتجهزون ليوم دراسي طويل، لم يكن آباؤهم يظهرون تجاههم أي عاطفة، العاطفة الوحيدة التي يظهرونها لهم هي الغضب، حينما يغضبون يتفرسون فيهم فلا يجرؤون على أن يبادلوهم النظرات، بل يحنون رؤوسهم ويتوقفون عن الكلام.

(11)

في المدرسة

يعلمونهم كيف يتجهزون ليوم الحساب.

وحينما يعودون إلى بيوتهم

يفكرون في أن (يوم الحساب، ليس هو الشيء الذي يأتي في النهاية

بل هو الشيء الذي يستمر طوال الوقت)

(5)

عند (ك) أنا الإنسان الأقرب إلى الطبيعة، وقد كان آسرا بالنسبة إليه أن أكون كذلك، وفوق ذلك أن أكون مستمعا مثاليا وهو يشرح لي ما قرأه أو فكرفيه. وأنا أصغي إلى شرحه تتملكه سعادة من يرى الآخرين منصتين إليه ومستغرقين.

أما ما يمكن أن يبدو عليه عندي فهو الإنسان الحزين. شيء ما خفي وعميق جعله كذلك. ثمة جانب إنساني غزير في طبيعته، جانب ملحوظ ولا يخلو من شفقة، لكنه لم يستخدمه مع الناس. تنقصه السعادة، لكنه يحاول أن يتغلب على تعاسته؛ لكي يظهر في حالة معنوية ملائمة.

يستعرض ما قرأه ببطء وفي كلمات يتذوقها. وإذا ما وجد فيما يحكيه ما يصعب علي تصوره، يمثل بعضلات وجهه في تنقل سريع بين الانبساط والتجهم. يصوغ ما يريد أن يشرحه لي بتؤدة، ويختار الكلمات التصويرية لكي يمهد مسالك وعرة.

كان من عاداته أن يذهب إلى مطعم قريب من بيته، ودائما ما يتعشى فيه. يقدم المطعم بعض الأكلات الشعبية كالفول والتميس

والعدس والقلابة. مع نمو الوقت أصبح يقدم بعض الأكلات الأخرى: كاليغمش، والفرموزا والمعصوب بالسمن البري، أو العسل الحضرمي، من قبل لم يكن يقدم هذه الأكلات، لكن منذ فترة تغيرت بعض الأمور فتحسنت أحوال المطعم.

حينما افتتح المطعم كان مرتادوه من العمال الوافدين، فيما بعد أصبح يرتاده الموظفون الذين انتشروا في شمال المدينة كالأعشاب البرية، و الآن يرتاده موظفون وطلاب وعمال من مختلف الجنسيات، الأمر الذي جعله يستغل رصيف الشارع مكانا للجلوس.

في تلك الليلة وبعد أن تعشينا اقترحت عليه أن نجلس في كافتيريا في الناحية الأخرى من الشارع. طلبنا كوبي شاي، ونحن نرتشف غرقنا في مشاهد خارجية: في الجهة المقابلة يقف مجموعة من الشباب يبدون أقرب إلى التسكع، و يظهرون بلا هدف إلا من وخز المارة بنظراتهم. قبل إشارة المرور امرأة تتسكع بين السيارات، خمنا معا أنها تتسول، وقد لاحظنا أن تسولها ممزوج بحركات إغراء، استجاب لإغرائها أحد السائقين، و بعد لحظات ركبت معه وسط صيحات وصفير وضحكات الشباب. من أحد البيوت خرجت خادمة تلبس ثوبا شفافا، وتحمل كيس قمامة، رمته وعادت مسرعة تحمصها النظرات.

فجأة استفاق(ك) ينفض ثوبه. لا بد من أنه شعر بمجسات وهمية تقترب من ركبته، وأن من فعل ذلك هو الصرصار الذي لمحته يختفي وراء سطل وضع للنفاية. اعترته حالة غثيان، تغلب عليها

ببصاق متتابع في مغسلة معلقة في الجدار، راقبه شخصان فلم يعودا يأكلان. أعتقد أن الأمر بدا لهما مقززا، وحينما عاد إلى كرسيه شعر بذلك فانكمش على نفسه.

عقب تلك الجلسة لم ألتق به لبعض الوقت. بدا أنه قلق وغير مرتاح، وقد استخلصت من ذلك أن فكرة ما تدور في ذهنه. ومن نظراته اعتقدت أنه فكر في أن يقول لي شيئا ما. الآن أفكر أنها ربما كانت فكرة تتعلق بقصة تدور في ذهنه.

كان قد أرسل إلي رسالة شفهية مع الصحفية. وبعد يومين ذهبت إليه. في تلك الزيارة تحدث معي عما حدث معه بعد أن افترقنا.

قال

ـ في طريق عودتي كنت أسير كالمفقود، خائر القوى، أتمنى أن أختفي من الحياة وأعود إليها من جديد. سألت نفسي: أيعقل أن أكون قذرا ومقززا إلى هذا الحد؟ شعرت بندم وذنب وتفاهة لا حد لها، صوت بصاقي، وخرير الماء في المغسلة، وأعين الشخصين تتردد في ذاكرتي كذكرى مخجلة، شيء ما أشبه بذكرى لا أريد أن أتذكرها لأنها تخجلني.

أغمض عينيه كمن يعيد بناء ذكرى تتطلب التركيز.

قال:

ـ حولتني ضحكات الشباب إلى مسخرة، لكن وبالرغم من ضحكهم علي، فقد شعرت بحزن عميق في أعينهم. فهم يحملون

أعباء ثقيلة. ليس الحد الأدنى من العيش، فعلى ما يبدو أنهم من أسر إن لم تكن ميسورة فهي متوسطة الحال، بل من العبث الذي يحيط بهم، هويتهم المفقودة، ما بدا لي من عدم اطمئنانهم إلى أي شيء.

في الأيام اللاحقة سيتذكر اللحظة التي تلت.

قال

ـ بعد أن تجاوزتهم انتابني خوف من أن أكون مراقبا أو ملاحقا.

عاوده إحساس تلك اللحظة.

قال

ـ تخيلت أنني سأقع في فخ، وأنني سأسقط سقوطا بلا اتجاه.

سألني

ـ من أين تأتي لحظات كتلك؟.

أجبت

ـ لا أعرف

قال

ـ ربما هي لحظات شريرة و منزوية في الغيب، ربما هي فكرة مزيفة دخلت فجأة إلى ذهني، ربما هي لحظات نشوة الحياء من القبح. كل هذا ممكن، خجلي من نفسي، خوفي منها، وخوفي عليها عندئذ كان من المستحيل أن أكون هادئا.

في جلساتنا الأخرى يعود إلى تلك الليلة. في إحدى الليالي تذكر تفصيلات دقيقة.

قال

ـ حينما وصلت إلى شقتي تساءلت: كيف وصلت؟. ولكي أتأكد أن ما حدث قد حدث فعلا استرجعت سلسلة من المشاهد التي كان علي أن أراها: بعد المطعم والكافتريا، وأنت الذي قابلتك هناك، وضحكات الشباب، كان هناك فراغ في ذاكرتي، لم يكن هناك استجابة لكيف وصلت إلى شقتي.

انطلاقا من هذا الشعور العام. أضاف

ـ أستطيع أن أركب سلسلة من المشاهد، لكن في تلك اللحظة، حيث يجب أن أسترجع كان هناك فراغ. بعد تعب، تذكرت ذكرى مقززة تضمنت بصاقا وبلغما وصراصير، بعدها شعرت بهسهسات، شيء ما يشبه مجسات وهمية، قرون استشعار تهس وجهي، حركت عضلات وجهي كفأر. قال الجملة الأخيرة وهو يضحك.

سألني

ـ كيف فطنْتُ إلى أن هناك من يراقبني؟

لم أكن أعرف عما يتحدث.

قال

ـ انتبهت إلى حشرة رابضة على الجدار الذي أمامي مباشرة، انتبهت إليها في اللحظة التي سمعت فيها من الخارج وقع أقدام أعقبه صوت إغلاق باب. طارت الحشرة، وقامت بدورة قصيرة في غرفتي ثم عادت إلى مكانها.

صمت لحظة، بدا كأنه يعيد بناء المشهد الذي سيرويه.

قال

ـ في لحظة أقرب إلى العبث ضربت الأرض بقدمي اليمنى كي أزعجها. قامت الحشرة بدورات كثيرة تخللها فترات راحة قصيرة، كنت أفكر بدلا عنها: لا بد أنها تلقت انطباعا بالامتداد الخاوي لغرفتي، بفراغ هائل يضم شخصا عقد الغضب ملامحه، ذلك الشخص أنا. من المطبخ أحضرت خباطة حشرات، أعجبتني اللعبة: اندفاعات حشرة نحو الأمان، وصياد عقد ملامحه الغضب، و يحمل خباطة في يده اليمنى، لم تدم لعبتي طويلا، داخت الحشرة، ارتطمت أكثر من مرة بشبك النافذة، وماتت مرتبكة طرف الموكيت.

أتذكر أنه قال:

ـ أنا والحشرة كائنان منسيان لن يفتقدهما العالم.

انداحت ذاكرته نحو مشهد قد يكون رمزا لتلك الأيام التي عاشها.

قال

ـ قبل أن أنام ظهرت حشرة أخرى. في اللحظة التي ظهرت فيها حمل جسدي ذكرى مجسات وهمية، سرت بهدوء ثم أقعيت تحتها مباشرة لأراقبها. بعد أن تفحصتها، شعرت بفراغ متوتر في داخلي، مذاق تافه لحشرة أتربص بها، فيض من أفكار ومشاعر غامضة، كتلة من الشقاء والوحدة. انسحبت من مكانها إلى مكان تشعر فيه أنها آمنة، فزحفت كظلها، كأنها تملك خيوطا تشدني بها، أنا تحت،

وهي فوق، تدور بي الغرفة حتى وصلت بي إلى مرآة مسندة إلى الجدار. حينئذ انتبهت إلى المرآة فشعرت بإهانة، وتصرفت على أن في المرآة شخصا آخر يراقبني، سخطت منه لأني لم أكن أعرف ماذا تعني نظرته التي كانت نسخة من نظرتي الصامتة والساكنة، فكرت في أن أحدنا نسخة من الآخر، شخصان تطابقا تمام المطابقة مثل شخص وصورته في مرآة.

حينما انتهى قال

ـ في تلك الليلة كنت «غريغور سامسا» من غير أن أتحول إلى حشرة.

إنني أكتب هذه التفاصيل لتفسير الجو الذي كتب فيه قصتيه «المستمع الأخير» و «يقظة الروح» اللتين نشرهما في المنتدى، وحظيتا باستقبال بارد من الأعضاء. قبل أن يكتبهما كان قد قرأ رواية «المسخ» لكافكا. والآن يبدو لي أنه قرأها قبل ذلك، وعلى هذه الخلفية أفسر ما قاله لي ونحن في الكافتيريا. أذكر أنه قال لي.

ـ إنك حشرة.

ثم رتب على ظهري، كي لا أغضب.

عاد إلى القول:

ـ الحشرة أفضل منك.

ثم شرح لي أنه يفكر في حشرة ملء العالم، أو بالأحرى أكبر، وما

يعجبه في الحشرات أن أبوتها ليست واجبة، يكفي أن تخصب فتنتهي أبوتها مع الإخصاب أو بعده بقليل، تمنى أن يكون حشرة.

قال

ـ أنا أسحق كل الحشرات كي يهدأ قلقي من أن أصبح حشرة فعلا.

(6)

مثله مثل غيره من الجنوبيين اهتم (ك) بزيارة شخصية كبيرة لمنطقة الباحة، تكونت قصة «المستمع الأخير» على خلفية تلك الزيارة. في البداية أراد أن تكون صفحة واحدة، لكن يبدو أن القصة سارت رغما عنه في اتجاه أن تطول.

أتذكر أنه قال لي:

ـ ليس مهما أن تكون طويلة. المهم أن تسيل مثلما تسيل الحياة، من غير أن نشعر بسيلانها.

ونحن نشاهد الحفل معا، لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام؛ بسبب ملاحظته على الكيفية التي احتفل بها الناس هناك.

قال:

ـ يرقصون وظهورهم محنية.

ولأنني لم أكن أخوض في مثل هذه المواضيع، فقد أضاف

ـ الرعب هو الذي أحنى ظهورهم.

على هذه الخلفية كتب المشهد التالي من القصة: (بعد انتهاء الكلمة (كلمة أحد شيوخ القبائل) ساد الهرج والمرج، فشعر الجنود

أن الأمر قد يخرج من أيديهم في أي لحظة. نز عرقهم وجحظت أعينهم، واخترقوا الجموع الغفيرة، اخترقوه ليطؤوا أقدامهم؛ فيقفز الناس على ساق واحدة، ويمسكون الأخرى، فبدوا كأنهم يرقصون).

والآن وأنا أعيد قراءة هذا المشهد أعتقد أنه يشكل سمة أساسية لطبيعة الناس الترجيكوميدية في ذلك الاحتفال، وهو ما يوقظ عند القارئ حس السخرية.

في تلك الفترة كنت على علم بحالات القلق التي تعتريه، بعد أن انتحر، وحينما قابلتها أكدت لي ما كنت أعرفه عن تلك المرحلة من حياته، كان لصوتها نبرة مؤثرة، وهي تتحدث عنه.

قالت:

ـ فقد مفهومه الخاص للحياة، وأصبح كعجوز تحولت رغباته إلى ذكريات، كان قلقا، وقد تولد قلقه من طمأنينته فعندما لا يقلقه شيء، فإن هذا بالذات هو ما يبدو مثيرا لقلقه. يشعل سيجارة، ويمزمزها على كوب الشاي، ويشرع في محاسبة نفسه: أي شيء فعلت؟ ما الشيء الذي قصرت فيه؟. فجأة يتحدث عن عزاءه في أن البشر جميعهم سيموتون، ويطمئنني بأن الناس لا يملكون ما هم فيه الآن، لكنهم يستعيرونه من أشخاص آخرين سيأتون بعدهم.

وأضافت

ـ إذا انتهي من شرب الشاي، قلب أفكاره رأسا على عقب، فالموت ليس نهاية البشر، والميت لا يموت بل يعيش في ذاكرة من

يعرفونه، وكلما كثر الذين يعرفونه طال بقاؤه، فهدف الحياة العابرة هو الخلود.

ما أثار انتباهي أن يكون (ك) مهتما بالدين.

قالت:

ـ كان يهرع إلى القدر، فالأمور تسير على ما هي عليه مسبقا، وهي دوما وستكون دوما كما أرادها الله، إذن لماذا يتعب الإنسان نفسه، وهو يعلم أن في القدر كل شيء ممكن؟ وأن كل شيء يأتي ليبرر أي شيء.

كتب بعد «المستمع الأخير» قصة «يقظة الروح». نواة هذه القصة نكتة سمعها عن أحد الجنوبيين. جاء هذا الجنوبي إلى مدينة جدة، ومكث سنوات طويلة من غير أن يحقق أي مكاسب مالية، وبالرغم من ذلك فقد اكتسب سمعه بين الجنوبيين بأمواله التي لا تعد ولا تحصى. كان يأخذ ضيوفه الجنوبيين إلى «سوق العلوي» ويفهمهم بأنه ملكه، ويتكلم مع البائعين بما يؤكد أنه المالك، وحينما يصل إلى عمارة الملكة يتحدث معهم على أنها عمارته، وأنه رأف بعماله لذلك وهبها سكنا مجانيا لهم.

يشير هذا المقطع من القصة إلى هذه النكتة. كتب يقول (كأنما سقط في حلم يقظة؛ فشرع يسلم على أصحاب الدكاكين، ويختار لهم أي اسم يصادفه لسانه.

سأله العجوز:

ـ تعرفهم؟.

أجاب

ـ في أحد ما يعرف عُماله!!

انفرجت أسارير العجوز، وتنهد عميقا كمن بقي لحظات بلا هواء، لم يكن يملك نفسه وهو يسير في إثر ابنه، ابنه الذي إن لم يكن يشفى فهو ينسى، يشكل نسيجا من حلم اليقظة بحيث يستطيع أن يشير إلى هذا اليوم بقوله: اليوم الذي امتلك فيه سوق العلوي.

قبل أن يخرجا من السوق، توقف به أمام عمارة الملكة، سأل الواقفين أمامها عن المستأجرين وصحتهم، لم ينس أن يوصيهم ببذل أقصى الجهود من أجل راحتهم، ووعدهم بأنه سيضاعف رواتبهم إن هم اهتموا واجتهدوا، كان هؤلاء كالصم ينظرون إليه بنظرات لا تمت للموقف بصلة).

بعد أن نشر في المنتدى قصة «المستمع الأخير» لم يعلق عليها أحد. لم يغضب؛ فقد عرف أن الخوف هو ما منع الأعضاء من التعليق عليها، وقد عاش تلك الفترة تحت ضغط أنه مراقب.

أتذكر أنه قال لي:

ـ أشعر بامتنان لغرفتي البعيدة عن عالم يراقب فيه الكل الكل. اليوم رأيت كيف تسير الأمور من نافذة مكتبي: خادمات في النوافذ يتفرجن على العمال الذين هم بدورهم يتفرجون عليهن. امرأة سوداء عند برميل قمامة ترفع ثوبها إلى منتصف فخذها كما لو أنها نسيت أنها امرأة. عامل يراقبها جهاراً بدا أنه لم يتعرف الخجل بعد. شاب يراقب العامل الذي يراقب المرأة، والذي يعرف بدوره أن العامل

يراقبه. امرأة في سيارة تراقب الشاب الذي يعرف أنها تراقبه هو والعامل. اقشعر بدني من عيون الناس التي تحرس، وتراقب وتسجل في يوم حساب مستمر. تعرف يوم الحساب ليس اليوم الذي يأتي يوم القيامة، بل هو اليوم المستمر أمامنا.

ضحكت من ملاحظته الرشيقة التي ختم بها

ـ لقد رأيت المرأة السوداء، التي رأت الشاب، الذي رأى العامل، الذي رأى المرأة، التي رأت الخادمة، التي رأت بدورها أنني أنا أيضا رأيتها.

القصة التي أشعرتها أنها تفهم ما يقوله قلبها

. . . .

المستمع الأخير

ببطء حلزون، اجتاز المسافة الفاصلة بين عتبة بيته وبين مكان يطل على أراضيه الزراعية.

جلس كهيكل عظمي تقوس عموده الفقري، أخرج من جيبه كيس التنباك، ووضعه إلى جانب الكبريت والغليون، وشرع يتفحصها.

حين انتهى، اعتدل وتطلع إلى أعلى، فرأى سربا من النسور تغير في طرف القرية، فكر في إحدى الجيف، لم يدر بالا كأن الأمر لا يخصه.

أخذ الغليون، وقربه من عينيه، وشرع في تنظيفه مستعينا بعود كبريت، لم يكن يفكر في الغليون، لكنه يعمل بحذر، كأنه يقوم بمهمة خطيرة، تحتاج إلى دقة وتركيز.

انتزعه من عمله صوت عجوز:

ـ برتاوي.

ـ خير، أجاب من غير أن يرفع رأسه.

ـ ألا ترى النسور؟

ـ معي شغلة، وراح يكمل ما بدأه.

مد ذراعه بالغليون، وضعه بين إبهامه وسبابته في وضع طولي، تأمله مغمضا إحدى عينيه، لملم نفسه، ثم قربه مرة أخرى، واستأنف تنظيفه، ظل صامتا إزاء هذر زوجته العجوز التي يئست منه، فغادرت إلى المكان الذي تغير فيه النسور.

كان البرتاوي عجوزا جاوز السبعين من عمره، طويلا وينحني قليلا في مشيته، وتبدو عليه ملامح قروي عتيق حيث الجلد المدبوغ، واللحية الكثيفة، والشاربان المحفوفان بعناية.

كان جارا لنا، ولم يكن أبي راض عنه، فهو في نظره عجوز خرف، وخال من أي شعور، لاسيما حين يخوف إخوتي الصغار، لم يصارحه أبي بهذا، ودائما ما يسلم عليه، ويسأل عن أحواله ثم يدعو له بحسن الخاتمة، فيقابله البرتاوي بابتسامة تنم عن معرفة بما يكنه أبي له.

على عكس أبي، كانت أمي تعتبره كوالدها، وقد روت لي أشياء كثيرة عنه، من ضمن ما روته لي أنه كان صاحبا لجدي، وقد ربطتهما صداقة سفر، إذ كانا يسافران معا للعمل في الحج.

قالت أيضا: إن حكاية مشهورة ارتبطت به، وقد تناقلها الناس، لكنها لم تحك لي ما تناقلوه، وبين فترة وأخرى، وبتسامح من أبي،

ترسلني لمساعدته، وقد أرسلتني ذلك اليوم مع زوجته العجوز إلى المكان المحتمل لوقوع النسور.

تحركت العجوز ببطء شديد، وعلى امتداد الطريق لم تكف عن انتقاد أبي: فهو غير كفء لأمي، بل إن أمي خير منه، وأنها تستغرب من أكون ابنا له، ولم تخف لومها لزوجها، حينما أقنع جدي لأمي بتزويج أبي، فلولاه ما وافق على تزويج يتيم لا يملك شيئا، وربما مات من الجوع، وختمت قائلة: «مات الميت وعاش اليتيم».

حينما وصلنا كانت النسور قد عادت إلى أعالي الجبال، وفي المكان لم نجد إلا بقايا (فَرْث) حركته بطرف عصاها أكثر من مرة، ويبدو أنها عرفت الشجرة؛ فقد قالت: «ضأني لا تأكل من هذه الشجرة»، ثم قفلنا راجعين.

في طريق العودة عادت إلى سيرة أبي، و أفرطت في شكواه إلي. قالت: هناك دائما في أبيك ما هو أسوأ من السيئ، فقد افترى على جدك البرتاوي حكاية وضخمها، وقد انتشرت بين الناس؛ حتى أنه يستحي من الذهاب إلى سوق الخميس، أو المرور بقريتي مساك والجوف.

استمرت في الشكوى من أبي، ولم يقطع شكواها إلا إحدى العجائز، استوقفتها وأقسمت على أن تشرب معها القهوة، غادرت ولم تقل لي كلمة عرفان واحدة، فما قمت به واجب حتمي علي.

بعد أن خطت خطوات مع العجوز توقفت كأنها نسيت شيئا ما. التفتت و قالت بلهجة آمرة:

ـ مر على جدك البرتاوي يمكن أن يحتاج شيئا.

تقبلت الأمر بهدوء؛ فقد تعودت على هذا، ثم إنني استمتع بتكرار ما تقوله لي دائما.

في اللحظة التي دخلت فيها ساحة البرتاوي مرت غيمة، رفع رأسه وكمن يكلم نفسه قال:

ـ «يا الله يا كريم»

وقبل أن أتفوه بكلمة أومأ لي بالجلوس.

ـ أما زال أبوك يدعو لي بحسن الخاتمة؟ سأل ضاحكا

لم يترك فرصة كي أجيب فقد أضاف:

ـ أبوك يحب الكذب كأنه لا يعرف أن من يكذب لا تقبل دعوته، لقد افترى علي، لا أشك لحظة في أنه قد حكى لك، ولأن جدتك لم تعد فسأحكي لك ما جرى، لا كما يكذب أبوك.

تنحنح كي يصفي حنجرته ثم تابع:

ما حدث في ذلك اليوم له جذور بعيدة؛ فقد نقل إلي أحد المسافرين أن الحكومة تدفع مبلغا من المال لمن هم في الخمسين، وعلى امتداد حياتهم لمن هم في الستين، كانت الشروط تنطبق علي؛ فأنا بلا أولاد وبلا وظيفة و ما أملكه من الضأن لا يبلغ النصاب.

قبل أن أتجهز قال لي جدك:

ـ إن الأمور في بلجرشي[1] ليست على ما يرام، فالسروي غالبا ما يحتقر التهامي ويتعالى عليه.

على كل حال يمكن أن تأتي جدتك في أي لحظة، وتغضب مني، فهي تكره أن أحدث أحدا بهذه الحكاية، سأقول لها: إنك كابننا ولن تقول شيئا.

لست أدري هل سمعت بشخص اسمه عيشان، إنه من قرية مساك، اشتهر برائحته الكريهة حتى أن أهل مساك كانوا يتجنبون الجلوس معه، رأيته مرة واحدة، كان يعرف جدك وقبل سفره نهائيا أعطاه جدك عنوان طير البحر. سمعت عن طير البحر، رجل من قرية الجوف، كان هاجسه المبكر أن يفلت من قريته، غادرها ولم يعد فلقبوه بطير البحر.

يبدو أنني أحكي لك شذرات من حكاية لا رابط بينها، لكنني وصلت إلى ما أريد قوله، فحينما وصلت إلى بلجرشي، وقعت ضحية الحنين إلى قريتي بسبب الوجوه التي رأيتها في المقهى، تمددت على أحد الكراسي، لكنني لم أهنأ؛ فقد اعتلى الكرسي المقابل رجلان، وليس من اللائق بالبرتاوي أن يبقى ممدا في حضرتهما.

بعد فترة قصيرة من جلوسهما، سرت في المكان رائحة كريهة لم أستطع فك لغزها؛ فهي لا تشبه رائحة الدمامل التي تجتاح أرجلنا في

(١) مدينة في منطقة الباحة، جنوب السعودية.

بحثا عن الرائحة فلم أجد شيئا، انتزعت انفي من اعماقي، وتوغلت بعيني في وجه الرجلين فانحل لغز الرائحة، كان أحدهما عيشان و لا بد أن يكون الآخر طير البحر.

عليك أن تتحملني، نحن كبار السن ننسى بسرعة، لم أعد أتذكر هل قلت لك: إن المقاهي تغلق في بلجرشي بعد صلاة العشاء، في تلك الليلة خلا المقهى من المرتادين، ولم يبق إلا عيشان وطير البحر، لم يطلبا فراشا، والعمال لم يسألوهما.

طلبت فراشا فحمله إلي أحد العمال، في طريق عودته أطفأ الأنوار، وترك سهارية أعلى المكان المخصص لتحضير الشاي.

قرب الفجر ارتطم شيء ما بالأرض، نهضت كما يليق بالبرتاوي حينما يسمع صوتا في هجيع القرية، وحينما هدأت كان عيشان ينظر إلى طير البحر وهو ملقى على وجهه، قلبه أحد العمال ثم أطبق بيديه على فكه الأسفل دافعا إياه إلى الأعلى، اقتربت منه فرأيت عينيه مقلوبتين بينما كانت رجلاه تختلجان، لم أعرف ما حدث له، لكني فهمت من أحد العمال أنها نوبة صرع تعتريه دائما.

بحركة هادئة فك كيس التنباك، ووضع قليلا منه في راحة يده اليسرى، وشرع يفركه بيده اليمنى دونما اهتمام ملحوظ، سكت لحظة ثم استأنف.

الحياة طويلة والذاكرة هشة، لكنني أتذكر أن طير البحر استعاد

هدوءه بعد فترة قصيرة، وعاد إلى كرسية بينما بقي عيشان واقفا لا يتحرك.

لست أدري فهناك لحظات شريرة في حياتنا، قد يتسلل شيء ما إلى قلوبنا، فيولد الخوف من شيء نحسه ولا نراه، لا أعرف و أنا البرتاوي ما الذي دخل إلى قلبي، فقد سرت في أوصالي رعشة لم أعتدها، لكنني تمالكت نفسي وفضلت انتظار بزوغ الشمس؛ كي أرحل إلى الباحة[١] مقر التقديم في الضمان الاجتماعي.

توقف عن الفرك وصمت قليلا كي يضع ما فركه في الغليون، تفقد ما عمله بإصبعه الوسطى ثم قال:

في الطريق بين بلجرشي و الباحة لا يكاد يخلو شيء من اسم أمير سيزور المنطقة، كان الإعلان عن وقت الزيارة متأخرا، و الناس ينتشرون كالنمل في عمل دائب.

في قرية الزاوية، وفي واجهة محطة بنزين رأيت أول مرة صورة جانبية لهذا الأمير: ينظر من أعلى إلى أسفل مشيرا بيده اليمنى إلى جموع غفيرة ارتفعت رؤوسهم إليه، وأعينهم مشدودة إليه.

حينما غادرنا المحطة شرع سائق الأجرة يعدد فوائد الزيارة، مستدلا بمناطق أخرى استفادت من زياراته التفقدية، الشخص الذي في المقعد الأمامي قال: إن كل فرد من قريته دفع مائة ريال مساهمة مفروضة، ومن لم يدفع هدده شيخ القبيلة بفصله من الضمان

---

(١) العاصمة الإدارية لمنطقة الباحة، جنوب السعودية.

الاجتماعي، أما أحد الشباب إلى يميني فقد قال: إنه فرح بهذه الزيارة لأن المدرسة ستغلق.

بعد قرية بني مشهور أقام الجنود نقطة تفتيش، وجوههم خالية من أي عاطفة، كأنهم يخططون لمعركة حاسمة لن ينتصر فيها المبتسم، لم يكن معنى التفتيش واضحا لي، ولم يكن يهمني قط، لكن لحظة الخوف الشريرة عادت، ففكرت في أنه لا يجب أن أصمت، فصمتي قد يحول أعين الركاب نحوي.

كنت متأكدا من أن الصمت في مثل هذه الظروف لا يجر الصمت بل يجر الشك و الريبة، فصممت على أن أطري فضائل الزيارة، وشرعت في الكلام مرتبكا كأني سأقول الكلام الخطأ.

في الباحة، كانت واجهة مقهى أحمد بن سعيد مزدحمة بصور الأمير، عبرت الطريق العام، وبعد منحدر قصير وصلت إلى سوق الباحة، اتجهت جنوبا؛ فوجدت نفسي بين حزم الريحان والبرك والكادي تبيعها جلود مرتخية بين العظام الناتئة، وعيون زاحفة داخل الجماجم، ومن نهاية الممر انحدرت غربا، وبعد فترة قصيرة سلمت على أحد أقربائي.

قرب الغليون من عينيه، فلاحظ أنه لا يحوي سوى مقدار ضئيل من التنباك، مال إلى الكيس ورفعه، ثم أفرغه حتى آخر ذرة في الغليون، وعندما اطمأن إلى أن التنباك لم يعد له أثر في الكيس شرع يكمل ما بدأه.

نحن كبار السن نحب الثرثرة، وقد تحدثت مع قريبي في أمور عامة، ثم أنصتنا إلى حوار يدور في مكان مجاور لنا:

صوت ١

ـ اللوحة جاهزة، لم يبق إلا العبارة.

صوت ٢

ـ يمكن أن نكتب«حللت في قلوبنا»

صوت ٣

ـ اللوحة لا تتسع، لا تنس بأنها يجب أن تقرأ من بعيد.

صوت ٤

ـ نكتب بدلا من كلمة «حللت» كلمة «أنت».

صوت ٥

ـ لا، لا، الحل عندي.

صوت ١

ـ هات.

صوت ٤

ـ نكتب «أنت» ثم نرسم قلبا.

لا أنا ولا قريبي نعرف نقرأ اللوحة، فبدت لنا تحوي قلبا يشبه حية منطوية على ذاتها.

أشعل الغليون وسحب نفسا عميقا، نفث الدخان وأتبعه بسعال

الموت ما ذم الكبر».

بعد أن استرد هدوءه قال: من المحال أن أتذكر كل شيء فقد انقضت سنوات، وما أذكره أنني يوم الاحتفال بزيارة الأمير، وقفت على رؤوس أصابعي؛ أراقب ما يدور في المنصة، وما يدور في الأرض حيث طلاب المدارس والجموع الغفيرة التي توافدت من القرى، وجوههم جامدة، ونظراتهم مستقرة وخاشعة، تحدوهم رغبة في أن يمنحوا احترامهم العميق لهذه الزيارة الكريمة. فاق حلمهم طاقتهم المختزلة في قلوبهم، فصفقوا وهتفوا وهم يسمعون اسم الأمير، وحينما انتهوا من تصفيقهم وهتافهم، شعرت أنهم مطيعون على أمل ألا يمتعض الأمير، وخائفون من أن يكون امتعض. جاء دور كلمتهم، ألقاها أحد شيوخ القبائل، فانفجرت ينابيع أحلامهم فهتفوا، وصفقوا حتى ظننت أن عفاريت استحوذت عليهم.

بعد انتهاء الكلمة ساد الهرج والمرج، فشعر الجنود أن الأمر قد يخرج من أيديهم في أي لحظة، نز عرقهم وجحظت أعينهم، واخترقوا الجموع الغفيرة، يطؤون أقدامهم؛ فيقفز الناس على ساق واحدة، ويمسكون الأخرى، فبدوا كأنهم يرقصون.

من بين الجموع الغفيرة شكل عيشان بؤرة جذب واهتمام، وهو يبدل بين قدميه كأنه يمارس طقسا من الطقوس، اتسع حوله الفراغ،

وامتد في لسان طويل حتى وصل إلى المنصة، فارتفعت يدا الأمير بالتصفيق وتبعه من حوله.

على الرغم من أن الجنود قد توقفوا عن وطء الأقدام إلا أن عيشان استمر؛ فقد وصل إلى نقطة لا يمكنه التراجع عنها، لهث وتعرق، وأخيرا تراكم على نفسه ثم خمد.

ارتفع الصفير و الصياح إيذانا بانتهاء المشهد، ثم طفا صمت مطعم كمصيدة في أحد السهول، فجأة اخترق الجموع شبح ووقف باكيا أعلى جثة عيشان، لم أتأكد من أنه طير البحر إلا حينما شاهدته يسقط محركا يديه ورجليه في تشنجات متوالية؛ فارتفعت الأيدي بالتصفيق.

اعترتني مرة ثالثة لحظة الخوف، فقفلت عائدا إلى القرية، قابلت جدك وحكيت له الحكاية بعدما وعدني بأن تكون سرا، لكنه حكاها لأبيك الذي أعرفه جيدا؛ فهو يضخم الحكايات ويتلذذ بإفشاء الأسرار.

حينما انتهى كنت فرحا فقد رغبت في إفشاء حكايته، فقد شعرت بارتياح ولذة وأنا أتخيل الآذان مشدودة إلي.

لم يطل ارتياحي فقد وصلت العجوز ومن غير أن تنظر إلينا سألت:

ـ هل حكيت له الحكاية؟

لم يجب، بل ابتسم غامزا لي بعينه اليسرى.

القصة التي أشعرتها أنه هو وحده يعرف كيف يكون الحب

يقظة الروح

في ذلك الصباح أخبرها بزيارة أبيه المفاجئة.

منذ تلك اللحظة لم تهدأ، ناقشت معه ما يمكن تحضيره، وما يمكن استعارته من الجيران، كنست الدرج، ونظفت مجلس الرجال، وأعادت ترتيب المساند. أزالت البساط القديم، وفرشت البساط الجديد المحفوظ لمثل هذه المناسبات الطارئة.

في غضون ذلك، اتجه هو إلى بقايا مرآة معلقة فوق المغسلة: حف شاربه وشذب لحيته، لبس ثوبا مكويا، وكوم الآخر عند مدخل الحمام، ألقى نظرة على المجلس فشم رائحة بخور. وقفت إلى جانبه طفلة في سروالها الداخلي، فاختلطت رائحتها مع الرائحة التي شمها قبل لحظة، أخرج علبة دخان (أبو بس) وأشعل سيجارة.

كمن نسي شيئا ما عس جيبه، وأخرج محفظة بالية، عد بصمت «عشرة، عشرين، خمسة وعشرين» أثناء تلك اللحظات تدافعت

ذكريات عشرين سنة مثل سيل جارف، كوم في ذاكرته عالما متكاملا من الأمل في أن تتحسن أحواله؛ فشعر أنه أحسن حالا.

قبل أن يخرج أمسكت الطفلة طرف ثوبه.

ـ بابا متى يجي جدي؟

أمسك يدها فشاعت ابتسامة على وجهها، لاحظ أن الفستان الذي لبسته أقصر منها، ولأول مرة ينتبه إلى ساقيها النحيلتين.

قبلها، ثم انحدر عبر درج ضيق وسيء الإضاءة إلى أن وصل إلى سيارته الأجرة، دار حولها، ولم ينس أن يركل العجلة اليمنى الأمامية، أدار المحرك ثم انتظر.

مرت في ذاكرته صور باهتة، من هذه الصور ميز صورة واحدة لأبيه، كان ذلك قبل عشرين سنة حينما صمم على السفر.

في ذلك اليوم وقفا آخر القرية.

قال له أبوه

ـ جدة مضيعة خلك رجال.

ثم احتضنه مثل ماء يمضي إلى البحر لأنه حنينه.

قبل أن يصل إلى موقف باب مكة، كان أبوه قد وصل قبله، تفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ما زال على الصورة التي عرفه عليها وإن كان ينحني قليلا في مشيته، كأنما هو نوع من العزة في مقاومة الزمن الطويل الذي عاشه، ركن السيارة واجتاز مشيا مسافة قصيرة لا تعادل ما استحضره من حياة أبيه.

أخيرا تقابلا وجها لوجه.

ـ يا الله حيه، يا نا فدا من جا.

قال ذلك بصوت أبيه حينما يستقبل الضيوف، فتفجر داخله حزن ثقيل لا يمكن إرجاعه إلى شيء ملموس.

أركبه وهو يفكر في حلقة الغنم، لكنه تعثر في خمسة وعشرين ريالا، هبطت به ذاكرته إلى أحد أودية القرية حيث كان يرعى الغنم، تذكر ذلك الوادي بصمت، ليس لأنه يرى الوادي، إنما لأن ثغاء الأغنام يرن في ذاكرته، فكر في جماعته واهتدى إلى أحدهم يعمل حمالا في سوق العلوي فأجل الذهاب إلى البيت.

في الطريق إلى سوق العلوي حدثه العجوز عن أن قريته لم تعد مثلما كانت، وكيف أن البعض يتآمر على البعض، و أن كل واحد يتمنى المصائب للآخر، وأضاف بحسرة «الفلوس تخرب النفوس».

في سوق العلوي[1] تقدم العجوز بصعوبة، وسط اندهاشه من الوجوه والألبسة والأحجام والدكاكين، كان معجمه القروي محدودا لا يسمح له بتسمية كل ما رآه، لكنه لم يفكر في التسمية بل في شيء آخر.

قال

ـ الرجاجيل سافروا واستفادوا.

. . . .

---

(١) سوق من أسواق جدة المشهورة.

ـ إلا قلي وانت ايش استفدت؟

لم يكن يعرف الإجابة، فشعر بأنه يتلاشى ويختزل إلى مجرد هيكل عظمي.

كأنما سقط في حلم يقظة شرع يسلم على أصحاب الدكاكين، ويختار لهم أي اسم يصادفه لسانه.

سأله العجوز:

ـ تعرفهم؟.

أجاب

ـ في أحد ما يعرف عُماله!!

انفرجت أسارير العجوز، وتنهد عميقا كما لو أنه بقي لحظات بلا هواء، لم يكن يملك نفسه وهو يسير في إثر ابنه، ابنه الذي إن لم يكن يشفى فهو ينسى، يشكل نسيجا من حلم اليقظة بحيث يستطيع أن يشير إلى هذا اليوم بقوله: اليوم الذي امتلك فيه سوق العلوي.

قبل أن يخرجا من السوق، توقف به أمام عمارة الملكة، سأل الواقفين أمامها عن المستأجرين وصحتهم، لم ينس أن يوصيهم ببذل أقصى الجهود من أجل راحتهم، ووعدهم بأنه سيضاعف رواتبهم إن هم اهتموا واجتهدوا، كان هؤلاء كالصم ينظرون إليه بنظرات لا تمت للموقف بصلة.

عندما دخلا إلى البيت وجدا صفا من البنات، سلمن على جدهن بحرارة، وحدها الطفلة الصغيرة التي شعرت بعدم قدرة جسدها

النحيل على مزاحمة أخواتها، فانتظرت حتى جلس، دارت حوله وشعرها محلول يقطر بالماء.

قال العجوز

ـ أنا أبوك ليش البنات بهذي الحالة؟

. . . .

ـ ما ظنيت إنك تبخل عليهن.

أمام تعليق أبيه، شعر بأنه يحمل شيئا أكبر من حمل نفسه، ربت على كتف الطفلة ونهض كشجرة غاصت جذورها حد الإنهاك متجها إلى المطبخ.

حينما غاب أبوها، حامت الطفلة حول العجوز قبل أن تكتشف ما تريد.

ـ جدي أعطني ريال اشتري اسكر يم.

(7)

بعد أن كتب القصتين بدا لي أن حالته تتدهور. بعد سنة من انتحاره ذهبت إلى مقر عمله، وبعد أن تحدثنا طلبت من المدير أن يريني مكتبه.

ونحن نسير. قال:

ـ مرة دخلت مكتبه. و كما لو كان شعر بي ولم يراني قام يفتش زوايا المكتب. اتجه إلى الباب وأعاده بقوة فارتطم بالجدار محدثا صوتا هز الغرفة، سقطت ورقة معلقة طرف المكتب، فبحث تحت المكتب، حرك الكرسي، أزاح الأوراق ورقة ورقة، طير الأوراق، قلب الكرسي، فتح الأدراج، وسقط على الأرضية يلهث.

قلت له:

ـ أريدك في مكتبي، فارتمى بين الأوراق يغرفها من غير ترتيب، تناسلت الأوراق من بين يديه، فجمعها في زاوية، ووقف منتصف المكتب، أخذ ملفا وجمع فيه أوراقا كيفما اتفق وخرج.

سألت المدير

ـ أين ذهب؟

ـ كنت قد ذهبت إلى مكتبي، وبعد ساعة جاء. وهو يدلف اصطدم مرفقه بأحد الخارجين فسقطت ألأوراق، جلس يجمعها و يتصفحها، وبين لحظة وأخرى يطير ورقة من الباب.

كانت تلك وقائع ذلك اليوم. كان لا بد أن يمر بعض الوقت لكي يعود (ك) إليها، يعود ليتفحصها كما لو كان لم يعرها اهتماما حينما حدثت. في إحدى الليالي شرح لي مرة ما دار بينه وبين المدير

قال

ـ اليوم سألني المدير هل أنت مرتاح في عملك.

توقف؛ ربما ليلتقط نفسه. كنت قد سرحتُ بعيدا لكنه أعادني

قال

ـ كنت كحلزونة مختبئة يصلني صوت المدير من بعيد

مضى يقول. سألني المدير

ـ هل تريد شيئا؟

صمت كما لو كان يعيد ترتيب ما حدث.

قال

ـ دخل سؤال المدير إلى رأسي، إن لم يكن قد دخل فقد كان نوعا من الصدى، صدى بعيد بدا أنني أسمعه هشا كهشاشته المدير.

عرفت من قسمات وجهه انه سيعود إلى ما قاله المدير

ـ سأصلح المكيف، سأعيد صبغ الغرفة، سأصرف لك مكتبا جديدا.

كان بإمكانه أن يتذكر التفاصيل الصغيرة

قال

ـ خطرت في ذهني (كذبت)، لكنني طردتها ونظفت ذاكرتي منها.

راقت لي فكرة أن يزاوج بين ما قاله الدير، وبين ما يدور في ذهنه هو؛ لذلك تركته يكمل

قال

ـ هذا بيان تعبئه من أجل ترقيتك.

قال

ـ اعترتني نوبة ضحك لكنني كبحتها.

قال

ـ سأرفقه بتقرير عن محافظتك على الدوام.

قال

ـ فكرت إنه يتكلم بجدية.

قال

ـ يمكن أن تترقى في مكان خر، في الرياض مثلا.

. . . .

ـ لا عليك، سأقف معك.

. . . .

ـ سأقول إنك منتظم، عشر سنوات لم تتغيب يوما واحدا، ولم يشتك منك أحد، الموظف الوحيد في المكتبة الذي لم يفتح نافذة، ولم يشتك منه أي جار.

. . . .

ـ سأكتب: إنك كالغبار العالق في كتب المكتبة.

. . . .

ـ أنا أعرف المسؤول عن الترقيات في الوزارة، إنه يحب العبارات التي تشبه العبارات الموجودة في الكتب.

. . . .

ـ سأجمع عبارات أخرى، يمكن أن تساعدني أنت في ذلك، الآن يمكن أن تنصرف، أنا عضو في اللجنة ، ورئيسك المباشر، كن مطمئنا.

أنهى المدير حديثه معي قائلا

ـ كان صامتا، لكني أعرف أن شيئا ما كان يدور في ذهنه. بعد أن عرضت عليه ما يمكن أن أقدمه، نهض. وحين وصل إلى باب المكتب توقف لحظة كمن نسي شيئا ما، ألقى نظرة سريعة ثم انصرف.

(8)

انتهت علاقتي بالصحفية. لم نعد نتراسل أو نتحدث، انتهت لأنها وجدت شخصا آخر. وقد تقبلت نهاية علاقتنا بهدوء؛ ربما لأني أعرف أن علاقة ما لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. أحيانا أفكر لماذا نغضب أو نحزن حينما ينقضي العمر الافتراضي لأي علاقة.

في هذه الأثناء تطورت حالة (ك) إلى الأسوأ. يخرج من شقته ليستقل حافلة. قبل أن يصل إلى مقر عمله يفطر في كفتيريا قريبة منه، إفطاره المعتاد سندوتش بالبيض المسلوق وكوب شاي منعنع، مكانه معروف ونادرا ما يغيره، ومن هناك شاهد منظرا جانبيا لمبنى المكتبة.

حينما التحق بالعمل لم يكن مبنى المكتبة يثير في ذهنه أي أفكار، لكن الآن ما إن يشاهد المبنى حتى يتملكه إحساس بأنه غير محظوظ، وأنه لا يعيش ضمن أحلامه التي رسمها.

في السابعة والنصف يدلف إلى مكتبه. وحينما يؤذن الظهر يكون قد أكمل هواجسه: كيف يمكنني تحمل رتابة السنين؟ أي قوة ستساعدني كي أستمر في هذا المكان الكئيب؟ لماذا علي أن أستمر

في مكتبي المثير للأعصاب؟ أما من أحد ينتشلني من الوضع الذي أعيشه؟ هل سأستمر على هذه الحالة حتى أشيخ؟ بعد صلاة الظهر يجمع الأوراق، ويدسها من غير ترتيب في أي درج من أدراج مكتبه.

في المساء يجهز الشاي ويسند ظهره إلى أحد الجدران. يعيش الماضي كما لو كان حاضرا، ويعود إلى مشاهد سابقة من حياته، يعود ليعيشها بدلا من أن يرويها، وليكررها بدلا من أن يحكيها، وليضع منها موضع الفعل ما يجب أن يكون موضع الحكي. صارع ذاته ببطء، وارتهن إلى واجب أولي هو أن يقبل بوجوده لأنه أداة في لعبة قاسية وعبثية من غير بداية أو نهاية أو معنى.

أتذكر أنه قال لي

ـ أنا في هذا العالم ككيس مملوء باللحم والعظام والدم والقذارة. أحيانا أفكر في أن أعترض سيارة.

وأنا أتحدث معها عن هذه الفترة قالت لي.

ـ لسوف أتذكر طوال عمري هذا الموقف. عرض عليه أحد الأطفال الأفغانيين أن يشتري. أفهمه أنه لن يفعل لأنه لا يحمل نقودا، شرح له أكثر من مرة لأن الطفل كان يتشبث بطرف ثوبه، ويطارده، حينما فهم الطفل أعطاه حلوى بلا مقابل. وضعها في جيبه.

روت لي هذه الحادثة فشعرت بنداء مجرد وواضح هو نداء امرأة إلى رجل افتقدته، عندئذ أدركت كم كانت تشعر بالألم والوحدة، وكم كانت تحبه، وكم كانت تفتقده.

أصبح يمشي متهالكا. لم يكن يلتفت إلى الخلف، ولم يكن في حاجة إلى أن يرى السيارات وهي تقترب منه؛ لكن قلبه يفز من صوت منبه، فيقفز ويغذ السير، ثم يهرول، ليقفز أخير إلى منطقة آمنة على الرصيف.

أذكر أنني توقفت مرة لكي أوصله إلى شقته. قال لي

ـ كل شيء ينفلت مني، أشعر بأني شخص آخر، وأفكر في أنني لست أنا، وأن ما أفكر فيه هو مشهد من حياة شخص آخر لا أعرفه.

قلت له

ـ تبدو منهكا.

قال

ـ أسمع صوتك كما لو كان يخرج من مغارة.

قلت

ـ لم تعجبني صحتك، كنت أفضل من هذا بكثير.

قال

ـ لم أعد أعرف كيف أشعر، ولا كيف أفكر، ولا ماذا أرغب أو أريد، أشعر بأنني كنت أتفرج على مشهد مكتظ بالأسئلة، و أن معاني الأشياء قد انسلت منها وتركتها مفتتة، ومبتورة ولا رابط بينها.

(9)

ذات يوم سأل (ك) أمه

ـ لماذا يدعونني باليتيم؟

أجابت

ـ لأنك بلا أب.

أضافت

ـ لقد مات

وهاهي الحكاية التي حكاها لي (ك) ذات ليلة.

قال:

ـ لقد عشت في القرية واللحظات التي أحتفظ بها من طفولتي واضحة.

في ذلك اليوم حيث تسكن جدته قضي فترات ما بعد الظهر، قبل المغرب حضرت القهوة ثم فرشت حصيرا على بعد أمتار قليلة من عتبة دارها. العادة أن تكون هذه الفترة ساكنة، يجلس فيها أهل القرية أمام عتبات بيوتهم. لم يكونوا يشعرون بالزمن فهو لم يخلق من أجلهم.

أحيانا تلف الغيوم الداكنة سماء القرية، فيعتري الأهالي رعب غامض مما يخبئه القدر. نادرا ما تمر مثل هذه العتمة بسلام؛ حيث صاعقة تحرق أحد البيوت، أو سيل جارف يسحب قطعان من الغنم، أو خصومة بين شخصين على وشل ماء تتطور إلى أن يقتل أحدهما الآخر.

في ذلك اليوم أظلمت السماء. أتذكر أنه قال لي

ـ تعوذت جدتي من الشيطان حينما شاهدت سرب طيور فر في اتجاهات مختلفة، وحذرتني من أن أمد إصبعي أو أن أشير به إلى أي اتجاه، كي لا تحرقه إحدى الصواعق التي شرعت تشق سكون القرية.

بدت جدته مرتبكة تحك وجهها وهي تتمتم بأدعية مختلفة، كان حكها مركزا تحت عينها اليمنى.

قالت له:

ـ دمعة قادمة الله يكفينا شرها.

ثم شرعت تتحدث عن طبيعة الحدث الذي يمكن أن يغتصب دموعها.

لم يكن في استطاعته أن يصدق أي حدث يمكن أن يبكيها، أكثر من مرة شاهد أمه تبكي، لكن أن تبكي هي فلم يسبق لي قط أن شاهدتها. لم يكن عقله الصغير يشك في أن ما سيبكيها هو كارثة أكبر مما تحدثت به..

وهو يفكر في طبيعة الحدث شعر بقلبه يتسارع فاعتزلها كي يكون قرب نفسه، واستغرق كليا في وجوده الذاتي من غير أن تعكر صفوه قعقعة المواعين التي شرعت في إدخالها من الساحة.

حينما انتهت وضعت فأسا على العتبة.

قالت:

ـ إنه يحرس البيت من الصواعق.

وقبل أن تستقر في الداخل وقفت على العتبة تراقب السحب المتراكمة في السماء ومن فوق كتفيها بدت له الغيوم داكنة كأنما ليس ثمة سماء.

شرع يتأملها من غير أن يفارق ما هو فيه.

قال لي

ـ فكرت في أنها قاسية، لا بد من أن تكون كذلك لاسيما حين تنهر أمي، لكن صوتها سرعان ما يرق حينما تسبح أو تذكر الله، أما إذا حكت فإن الجميع ينصت، لا أبالغ إذا قلت إنها حينما تحكي ينسى نساء القرية أن يطعمن أطفالهن.

من غير أي مقدمات قالت له:

ـ لن تبات عندي. وأمسكت بيدي وجرتني إلى طرف الساحة.

تفرق الدجاج المنكمش على نفسه، نفض أجنحته وقأقأ، فقز قلبه واعتراه رعدة تسربت عبر ظهره. وعلى امتداد سنوات عمره سيظل يتذكر هذا الموقف ويعيشه كلما رأى الدجاج.

قال لي

ـ لم يكن أشك في أنها لاحظت خوفي فشعرت بأنها تفكر في أن توصلني إلى البيت.

حينما وصلا إلى البيت لم يكن أبوه موجودا.

قالت أمه:

ـ لن يعود قبل أن يصلح السواقي.

ـ قالت جدته:

ـ أعوذ بالله من شر هذا الليل.

تحدثت جدته عن جسمها.

قالت:

ـ أشعر برضوض في جسمي وحكة في وجهي.

وعادت تتحدث عن أن تلك الليلة لن تمر بسلام

لم تعلق أمه، بينما شعر هو براحة لهذا الصفاء الذي ساد فجأة بينهما.

شرعت أمه تتحدث.

قالت:

ـ منذ زمن طويل لم أره يضحك مثل اليوم.

لخص لي ما عاشته جدته في تلك اللحظة، وقد حاولت أن أتخيلها وقد بلغ بها الرعب منتهاه.

قال

ـ علت وجهه جدتي رصانة عميقة تتسم بها عادة حينما تفكر بجدية. ضاع إحساسها بوجودها للحظات، مساحة فارغة من الزمن أعتقد الآن أنها لم تكن موجودة فيها.

قالت وهي تنظر إلى أمه

ـ يكفينا الشر، كل الشياه التي يأكلها الذئب تركض في الصباح.

أضافت:

ـ كنت أتنبأ بموتهن، الغنم هادئ أما هن فيرقصن ويقفزن.

أشغله قلقها، قدم له لحظات من حياته وحولها إلى لحظات لا تنسى، لحظات جديرة بحنين لم يكن يطيقه. الآن أحاول أن أتخيل له صورة وهو يقول

ـ لا أحن إلى أبي وحسب، بل أحن إلى نفسي حينما أضحك قبل أن أموت.

إلى تلك اللحظة لم يعد أبوه، اقترحت جدته أن تصعد مرتفعا أعلى بيته كي تناديه؛ لكن ما إن فتحت الباب حتى وصل سمعوا ارتعاشا كونيا صادرا عن آلاف الطيور والحشرات وحفيف الأوراق فارتدت إلى الوراء، تكبر وتذكر الله وتدعو أن يكفيها شر هذه الليلة.

قال لي

ـ تخشبت في مكاني من خطر لم أكن أعرف كيف حل بنا، وعلى

أي أساس نتعرض له، صمتت جدتي صمتا ثقيلا ورهيبا بينما هدأت أمي كما لو أنها تعيش يومها الأخير.

جلبت لهما أمه شيئا نأكله: قرص شعير ودلة قهوة.

قالت:

- «لقمة على فاقة أحسن من ناقة».

لم تتحمس جدته للأكل، لقمة واحدة استمرت تمضغها وهي تتطلع إلى السقف لتراقب قطرات معلقة في السقف. حثتها أمه على أن تأكل، ومدت ذراعها لتقرب القرص فمر كم ثوبها على الفانوس. ثمة لحظة واحده يتذكرها. قال

- اهتز الفانوس، ومعه اهتز فضاء البيت، وتغبرت للحظات ظلال الأمتعة القليلة.

حطم صوت واضح الصمت الذي يعيشونه، بعدها تردد صوت يشبه قرقعة الصناديق، وبدا أن صفائح ترتطم بالأرض، نهضت جدته لترى ما حصل، مدت رأسها من الباب وأعادته.

قالت

- العاصفة هدمت صندقة الغنم.

عاد الخطر الذي شعر به في صورة حدث مريب يجري أو أنه في طور التكوين؛ فقد ازدادت الصواعق، دوي هائل من غير صورة، لمعات برق كأنها تقدح من شق الباب، تراكم على نفسه وتخيل عقله قوة تدميرية هائلة من غير شكل.

في مثل هذه الظروف العادة أن يكون أبوه موجودا، يحدث أمه بأن ما تسمعه من رعود يشير إلى (فصل الخامس) وعليها أن تشد ظهرها للعمل الطويل والشاق، ثم يبدأ في ارتشاف القهوة كأن لا شيء يدور في الخارج فيبعث في قلبي الاطمئنان.

إذا لم يكن موجودا فإن جدته تمارس نفس الدور، حدث هذا أكثر من مرة بوصية منه لاسيما حين يذهب إلى السوق، يصلي الظهر يوم الثلاثاء، ثم يملي على أمه ما تفعله في غيابه، وفي طريقه يمر على جدته ويحثها على أن تبقى في البيت ريثما يعود.

كان وجود جدته يضفي على البيت نوعا من الطمأنينة، لكن في تلك الليلة اكتسب قلقها وصمتها مغزى أخل بالهدوء، تطور إلى أن وضعت رأسها فوق كفيها وشرعت في الأنين كأن ألم بها طائف. تقبل أنين جدته بصمت وامتثال. قال لي وهو يتذكر هذه اللحظات

ـ لم يتبين لي أي معنى من أنينها، فتطلعت حولي في ترقب وخوف.

حركت أمه شفتيها لكن كلمة واحدة لم تسمع، عدلت من وضع جلستها بحيث زحفت في اتجاه جدته التي صرخت

ـ «آه يا ولدي، الله يجعل عمري قبلك».

ساد الصمت في الداخل والخارج. لم يعد أسمع سوى صوت قطرات واحدة تلو أخرى وسيول تحك الأرض.

هدأت جدته، وشرعت بالتدريج تعود إلى طبيعتها، لكنه شعر أن وراء ما تتظاهر به من الهدوء جدار من القلق. وبهدوئها عاد إلى

هدوئه المغلف بقلق أن أباه لم يعد بعد، أغمض عينيه وفي لحظة خدر تدفقت السيول نحوه، لم تجرفه بل حملته، فطفا فوقها بتموجات، كاد يغرق فاستيقظ.

ساوره شك بأن الليل قد انتصف، كانت أمه قد ثنت ركبتيها، وتوسدت الحصير تتوسل الرؤية بعينين نصف مغمضتين، أما جدته فقد وضعت يدها على حافة دلة القهوة.

سأل جدته

ـ هل عاد أبي؟

ـ لا. أجابت من غير أن ترفع رأسها.

شغل عدم عودة أبيه تفكيره للحظة لكن سرعان ما غطيت في النوم كحجر.

قرب الفجر حلم بأنه أخفى نفسه في حفرة، فصحا على صوت نحيب، اجتاز نعاسه بسرعة، ووصل إلى جزء من البيت يعشش فيه البكاء. كان أبوه يتألم، وكان وجهه يضاعف ألمه ويرجعه مئات المرات، شعر بالتعاطف معه وكان ألمه أثقل من ألم أبيه.

الصورة التي لازمته من تلك اللحظة يعبر عنها دائما بالقول

ـ شخصت عيناه، وارتخى فكه الأسفل، ومات مع وجهه مئات الوجوه التي يعرفها.

القصة التي استمتعت بها إلى حد أنها لم تشعر بالذنب مما يفعلان

. . . .

حكاية أخرى من حكاياته

عبر باب الغرفة تمعن في طفلته النائمة. اتجه إليها على رؤوس أصابعه، ثم قبلها. وهو يهم بالخروج. توقف أمام المرآة؛ كي يلقي على نفسه نظرة أخيرة.

قبل أن يرفع يديه كي يضبط العقال، سمع وقع خطوات عند مستوى خفي ومشوش، أنصت؛ لعلها صدى خطوات طفلته في الجدران التي فقدت طلاءها.

أرهف سمعه، فشعر بالصمت المغروز في كل الغرف، لكنه مازال يشعر بحركات خفيفة لم يحسن تصورها، فتح الباب فوجد قفصا مركونا في زاوية الدرج، حمله فوجد فيه عصفورا مقلوبا على ظهره، شعر بكآبة اللحظة، وبدا له أن العصفور قد مات، فتصلب كتمثال، و مضت بضع دقائق وهو يحدق فيه.

بصورة غير متوقعة استيقظت الطفلة، و ألقت نظرة، تأملت العصفور وهو في القفص، لم تنس أن ترمق أباها بنظرة، و للحظات

نقلت عينيها بين أبيها وبين العصفور. لم تكن تعرف ما الذي يمكن أن تراه، ولم يكن هو يعرف فيم تفكر؛ لأنها انسحبت إلى الداخل.

في هذه الأثناء، حمل القفص، وانحدر عبر الدرج؛ كي يضعه في برميل القمامة. أنهى مهمته وبينما هو يدلف من باب الحوش التفت يلقي نظرة أخيرة كي يطمئن على ما فعل، فرأى قطا أسود ينظر إليه بمكر من تحت إحدى الطاولات الخشبية المخلعة، وحمامة تخفق بجناحيها؛ لتحط على سطح البيت المجاور.

في الغرفة وقفت الطفلة مقطبة ومتخذة وضعية سؤال، حينما رأى هيئتها تذكر أنها تسأل أسئلة لا يجرؤ هو على أن يسألها، لذلك لم ينتظر سؤالها، بل حكى لها أن العصفور لم يمت بل سافر يزور أهله. لكي يلهيها قال لها: إن العصفور خبأ نفسه في قفص في انتظار النهار، ثم بدأ في الغناء والرقص، لكنه تعب ونام، وفي الصباح سمع خطواتنا فاستيقظ، وانسحب نحو الأفق البعيد؛ هناك حيث ينتظره أهله قلقين.

تفحصها قبل أن يخرج، لا تزال صغيرة وصافية، ونضرة كما لو نامت في حديقة من الورود، لمح أكثر من مرة إلى العصفور كي يتأكد من أنها اقتنعت، لم يكن يعرف أنه حملها عبء حكاية أخرى من حكاياته.

في اللحظة التي فتح فيها الباب رأى جاره، فكر في أن يسأله عن القفص، وحينما هم بالسؤال كان جاره قد اختفى مخلفا رائحة التميس الذي يحمله.

قبل أن يهبط تذكر الطفلة، فتصور الدرج من خلال ذكرياته معها. تذكرها وهي تخطو أبعد مما تصل إليه قدماها؛ كي تقلده، ابتسم وحمل معه قدميها، وشرع يقفز كعصفور.

أدار محرك سيارته، وهو ينظر إلى الفراغ الذي خلفه القط، صاحب هسيس المحرك زقزقة طائر، فشعر بأنه أسير طائر لم يسمعه من قبل. أرهف سمعه كي يحدد مصدر الصوت، أطفأ المحرك وهو يستدعي مناظر عذبة لجبال شاهقة، وأودية سحيقة، وسماء زرقاء وصافية.

أطلق غناء العصفور تحديا للطبيعة، وانكشف له مكان خارج إطار الصفات، فانجذب إلى مصدر الصوت؛ ليجد نفسه لا يستطيع رفع عينيه عن العصفور المستلب بصوته في القفص الذي رماه قبل دقائق.

أذهلته طريقة العصفور في الغناء: يدفن رأسه تحت جناحيه ثم يغني، تلاشى العالم من حوله، فتلقف القفص كما يتلقف كائنا فائق الحساسية. لم يكن يعرف فيم يفكر، فأغمض عينيه، وتخيل أنه تحت جناح العصفور. ارتقى الدرج كأنه محمول على جناح طائر، تعثر قرب الباب، لكن لا شيء يبدو أنه أزعج العصفور أو منعه من الغناء.

خرج جاره على صوت تعثره، لم ينتظر جاره كي يسأله أو يدعوه إلى الداخل، بل حكى له مباشرة حكاية القفص، لم يحك بالكلمات، إنما بجسده وتقاسيم وجهه، كان يحكي كعصفور سافر إلى السماء ثم عاد يصف رحلته. وفيما هو يحكي أغلق جاره الباب في وجهه، ليكتشف أنه لم يعد يحمل القفص.

القصة التي قرأتها فشعرت بالعرق على رقبتها، وعلى حلمتي ثدييها

. . . .

الشاعر

لقبه أصدقاؤه بالشاعر، (أل) هذه التي أدخلوها على (شاعر) حينما ينادونه، أو يتحدثون عنه هي (أل) العهدية، ولكي أوضحها بصورة تقريبية غير دقيقة، أقول: إنها تدلهم عليه كما لو كانت عنوانه، وتحدد من نكرته، وترمز إليه، وتوجه أذهانهم إليه وحده.

هكذا فلو حدث وتأخر عن جلستهم المسائية، قالوا:

ـ تأخر الشاعر.

أو حدث وأن اتصل عليهم معتذرا، قالوا:

ـ اعتذر الشاعر.

أو حدث وأن حضر مبكرا، قالوا:

ـ الشاعر في حالة رائعة.

أما لو بدأ يهذي، ويفكر بافتتان ورعب فيما سيكتبه، فيقولون:

ـ الشاعر في حالة إلهام.

حينما يؤكد لهم أنه سيحضر جلستهم القادمة، وأنه سيلقي عليهم شعرا طازجا كتبه بعد عناء طويل، تتحول (ألـ) إلى شعره.

(ألـ) هذه التي يدخلونها هذه المرة على (شعر) تحتفظ لشعره بتصور مثالي، وتوجه أذهانهم إلى ما يطلقون عليه «ومضة رؤيا، وومضة استجابة كالبرق والعشق»، وإلى تجربة شعرية فذة تترصده ا الكلمات وتدور حولها.

فلو ألقى قصيدة قديمة، قالوا:

ـ هذا هو الشعر.

أو ألقى عليهم قصيدة جديدة، قالوا:

ـ الشعر الذي يشبه العشق.

وهو يلقي شعره يشعر بأنه يركب الانحناءة الداخلية لموجه شعرية شفافة تعلو به عن أرضية الغرفة، فيراقبهم من أعلى كما تراقب الطيور، يسحرهم بتجسيداته للاستعارات، يخزهم برأس إصبعه السبابة وهو يشير إليهم واحدا واحدا لكي ينتبهوا إلى التشبيه ويتتبعوه حتى المخبأ، يبهرهم بنطقه التفعيلات التي يجعلها نقطة جوهرية للشعر؛ لمجرد أنه هو الذي نطق بها

قبل أن يذهب إلى الجلسة اعتاد على أن يلبس وهو يدندن (أنا الشاعر). (ألـ) هذه أدخلت في رأسه نوعا من الصدى، صدى منعشا وسارا، يصبح معه العالم أقرب لأن يكون شعرا منه لأن يكون نثرا. هكذا يبدو له الكون قصيدة حينما يسمعها الناس، و أن هذه القصيدة تستوعب فكرة الوجود في العالم.

حينما ينتهي، وفيما أطفاله متحلقون حوله، يمطرونه بما يجب أن يحضره لهم، يتصنع أمامهم أنه الشاعر، فيتصفح بعض الدواوين القديمة التي تمزقت أغلفتها، وتلطخت أوراقها الداخلية ببقع الشاي، والإيدامات، ودم البعوض، ومؤخرات الذباب.

في الحقيقة هو لا يقرأ، لكنه يبحث عن عبارات دونها منذ سنوات عديدة؛ لكي يرددها أمام أصدقائه، عبارات تروي معاناته كـ (الشعر اسم آخر للجحيم) و (القصيدة كالميت تبقى عالقة في الذهن) و (التفعيلة جرح مثل جرح الطلقة)، ما يعجبه فيها أنها عبارات كتبها بعاطفة جياشة أشبه ما تكون بعبارات حب كتبها مراهق، وسكب فيها أنفاسه اللاهثة.

ليلة واحدة كانت الليلة الأميز من كل الليالي التي مرت بهم، فلأول مرة يتصل عليهم فردا فردا لكي يخبرهم بأنه سيقرأ (القصيدة)، ذهلوا من (أل) قصيدة، وعاجلتهم قلوبهم بخواطر من تلك التي تراود القلوب لا الأذهان.

اكتشفوا مع (أل) التي أدخلها على (قصيدة) كيف تمضي حياتهم من غير أن يكتبوا ولا قصيدة واحدة، وكيف يمضي هو ليمتلكها. لم يكونوا من قبل قد حدثوا أنفسهم بأنهم لن يكونوا شعراء، لكنهم وفي تلك الليلة، وبعد عشرين سنة من محاولاتهم اليائسة اقتنعوا فجأة بأن (الـ) قصيدة حطمت كل آمالهم.

في تلك الليلة وقبل أن يصل إليهم تباطأت حركاته من الثقل الرهيب المتخيل بينه وبينهم، لكنه ابتدع لقاء حميميا وكاملا،

وغذى وهمه بإصرار لا يهزم. ثقلت خطواته كمن تورط في شيء أكبر منه، لكنه ما لبث أن ابتسم كما لو كان نجح في تدبير مؤامرة أو مكيدة.

حينما دلف لم يسمع أي همسة، فقد كانوا صامتين كالموتى، فتش عنهم في زوايا الغرفة الأربع، مد رأسه من الباب يبحث عنهم في الخارج، أعاد الباب بقوة، فارتطم بالجدار محدثا صوتا هز سكون الغرفة، حتى أن الملف الذي يحمله سقط.

وهو يبحث عن الأوراق اصطدمت يداه بأقدامهم، فحسبها خيالا، وسرعان ما تجمعت أقدامهم في ذاكرته، وأصبحت أقداما حقيقية فيها منطق ومعنى. منحته أقدامهم لحظة تواصل مع الواقع، فسجل قلبه المفاجأة قبل أعضاء جسده الأخرى، ذكرته أقدامهم بالحقائق التي تعم الغرفة، فارتمى بين الأوراق يغرفها من غير ترتيب، تناسلت الأوراق من بين يديه، فآثر تجميعها في زاوية كما لو كان يدسها، ووقف راضيا عما فعل.

نسي الملف والأوراق؛ لأنه شعر بأن رقصا غير مرئي يلف ويدور من حوله، تماسك لكي يبحث عن زاوية يراهم منها في وضوح، عثر عليهم فبقي صامتا يتفحصهم، ثم غرق في لحظة صمت رهيبة شعر فيها أنه يطفو في فراغ.

في لحظة تشبه العبور بين اليقظة والنوم، تعثر في ذاكرته وهبط إليها، كما لو كان يعود إلى بدايات العالم الأولى، هناك حيث الأرض الرطبة، والجداول الفارغة، والصمت المرعب، والغابة التي

لا يمكن اجتيازها، والطقوس المنقاة من كل المعطيات اللغوية والثقافية التي تحجبها.

وحينما لامست (الـ)قصيدة القاع، وحانت اللحظة التي ترتكز عليها لتطفو في ذاكرته، ألقى الكلمة الأولى منها، فأكملوا هم ما كرروه معا منذ عشرين عاما على أنها (الـ)قصيدة الجديدة.

(10)

الآن وأنا أكتب عنه، يمحو حنيني إليه ذكرياتي السيئة معه، يمحوها ليضخم طيبته، وفي كل الأحوال «ليس هناك من ينجو من آثار الحنين المخربة». أقول لكم هذا؛ لأنني سأقص عليكم آخر ما حدث بيني وبينه. ليست حكاية، بل حدث، ففي مقهى (الصقور) وفيما أنا أتهيأ للجلوس، أشار لي شخص ما أنه في الزاوية، وبما أنني أبحث عن أي أحد أتحدث معه، فقد امتثلت فورا لإشارته. في البداية، شاهدت ما يشبه كتلة رمادية، وبعد حين من اقترابي أصبحت مثل كيس مركون، ثم تصفت لتصبح (ك).

ما إن جلست حتى قال لي:

ـ أنت لا تعرف عني إلا اسمي، أما أنا فأعرفك حق المعرفة. هل تعلم أنك أكذب شخص قابلته في حياتي، شخص تافه وحقير.

نهضت، فشد طرف ثوبي حتى كدت أسقط:

ـ كلا، لا يجب أن تذهب، بما أنك جئت إلي؛ فيجب أن تسمح لي بإنهاء كلامي، ليس من اللائق أن تنهض لكي تدير لي ظهرك،

هذا الأسلوب لا يعجبني، أنت تعرف أن هذا لا يجوز أن يحدث بيني وبينك. أرجوك لا تستفزني في المقهى.

لم أظهر أي رد فعل خارجي وملموس، فقط ردود أفعال داخلية، شيء ما يشبه رعدات متقطعة تعتري عمودي الفقري.

رفع المتكى وأخرج ورقة لعب.

قال:

ـ قبل أن أثبت أنك كذاب وتافه وحقير سنلعب، لا تقل لي لن تلعب، لا فائدة من أن تتحايل علي.

وزع ورقتين وتوقف.

سأل:

ـ كم عدد أيام الأسبوع؟

أجبت:

ـ سبعة أيام.

استمر في توزيع الورق.

رد:

ـ لا. ألم أقل إنك كذاب؟! عدد أيام الأسبوع يومان هما الخميس والجمعة.

كان يراقبني بطرف عينه.

قلت:

ـ نعم الأسبوع يومان.

ـ قال:

ـ كذاب، عدد أيام الأسبوع ثلاثة.

. . . .

قال:

ـ قل ثلاثة.

كان الخوف هو الذي يحكم الموقف؛ لذا فقد امتثلت.

ـ قلت: ثلاثة.

ـ قال: قل أربعة.

ـ قلت: أربعة.

ـ قال: كذاب.

كنت أشعر أنه يلتف حولي كثعبان.

. . . .

قبل أن نشرع في اللعب قال:

ـ أعرف أنك حرامي، محترف غش، عليك أن تقسم بالله أنك لن تفعل.

ـ قلت: أقسم بالله لن أفعل.

ـ قال: كذاب، لم تقل لن أغش.

. . . .

ابتدأنا نلعب، في البداية تصرفت بارتباك مخافة أن أخطئ، كان هو قد نسي غضبه وانهمك في اللعب، لكنه سرعان ما عاد الشخص الذي كان.

قال:

ـ لا بد أنك تجاملني كي أفوز عليك. ألم أقل إنك جبان؟

رمى الورق في وجهي وصادر مني أي رد فعل؛ إذ أمرني بجمع الورق المتناثر فورا.

أثار المشهد أعين الموجودين لكنهم لم يتدخلوا. فقط يراقبون ما يحدث من غير أن يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منا.

وأنا أجمع الورق لا بدأنه لاحظ خاتمي، فقد أفرد إصبعه الوسطى قائلا:

ـ ضعه هنا.

شعرت بقشعريرة تنساب في عمودي الفقري، ولم يساعدني ارتباكي على أن أسل الخاتم، فأمسك إصبعي وانتزعه.

وضع الخاتم في إصبعه وشرع ينظر إليه.

فجأة صمت، وشرع يرهف بأذنه.

قال:

ـ لماذا تركلني برجلك؟

قلت:

ـ لم أركلك.

قال:

ـ كذاب.

تلفت في كل الجهات وهو يقول

ـ من؟ من هناك؟

مرت فترة صمت قصيرة، قبل أن يرفع يده؛ لكي يشير لرجل آخر دخل المقهى.

(11)

هل سمعتم بـ (خوسيه ماريا)؟ سأقول لكم. إنه صديق (ماريو بارغاس يوسا)؛ شاب أسباني، رسام وسينمائي. طالما حدثني عنه (ك). كان يعاني من داء غريب؛ دودة استقرت في جسده. وكان يضطر إلى أن يأكل وأن يشرب؛ لكي يهدئ من نهم تلك الدودة. لم يكن يأكل أو يشرب من أجل أن يتلذذ أو يتذوق، بل من أجل أن تتلذذ الدودة وتتذوق.

ذات يوم قال خوسيه لصديقه يوسا

ـ أنا أفعل ما أفعل من أجل تلك الدودة الوحيدة. هذا هو الانطباع الذي يتملكني، فكل ما في حياتي الآن، لا أعيشه من أجل نفسي، وإنما من أجل هذا الكائن الذي أحمله في داخلي، والذي لم أعد سوى مجرد عبد له.

منذ أن حكى لي، صرت أقارن وضع(ك) بوضع (خوسيه). كان يحمل في داخله دودة وحيدة. بدأت تلك الدودة بعبث أن يستدرج امرأة بكتابة القصص، وبفكرة تطور العقل الإنساني التي بدأت على شكل صبية لعوب. لم تلبث أن كبرت الفكرة؛ لتتحول إلى مسخ

مخيف، ودخلت الدودة إلى جسده وتحولت إلى كائن طفيلي مرعب.

في السنة الأخيرة من حياته عاني من قلق وخوف لا يهجعان.

أتذكر أنه قال لي

ـ أشعر بعينين تثقبان رأسي، فأخفى وجهي وراء كفي وانطوى، ثم تتوالى الاحتمالات. كل احتمال أفكر فيه يفضي به إلى احتمال آخر يلغيه، أقشعر وأتخيل ثعباناً يرهف رأسه، فارتجف.

سألته

ـ إذا ما حصل هذا أمام الناس. كيف تتصرف؟

أجاب

ـ أتمالك أعماقي وأتجمد كمن يمارس طقوساً غير مرئية. أبقي ساكناً أصغي إلى شيء ما على وشك الوقوع. أعرف أن لا شيء سيحدث، لكنني أفضل الانتظار متلذذاً بفترة إعداد لم تكتمل، وسرعان ما أتأكد أن مناوراتي ستنتهي، وستتحول إلى حقائق عارية، فأرسم في ذهني خططاً، تأخذ في اعتبارها تصرفات أشخاص أفترض أنهم يراقبونني فأصبح إنساناً يعيش وفق افتراض: إن فعلوا كذا فسأفعل أنا كذا.

سألته عن أذنيه المتورمتين.

قال

ـ بسبب ثنيي لهما؛ ذلك أنني اكتشفت بأن عيني لا تدركان إلا

الأسطح، فهرعت إلى أذني، وأتحرك كشبح يتخلق من أصوات الآخرين، ولكي لا يفوتني أي صوت أثني أذني في اتجاه مصدر الصوت، ثم أرسم حركاتي بناء على الأصوات التي أسمعها.

أضاف

ـ فيما أنا أسير معتمدا على أذني أشعر بأنه اعتلى جسوراً زلقة، وانحدر من حوافٍ شاهقة. كثرا ما استند إلى الأرض بحثاً عن توازن. أغمض عيني وأساير ترجرج الأحداث في ذاكرتي. يطفو صمت مطعم مثل مصيدة طيور، وتتولد أمام عيني بروق والتماعات، وأسمع في أذني طنين مستدق ومستديم. اختلس النظر لأتأكد مما سيفعلون فيتضاعف خوفي، أسرح ببصري مفتشاً عن مخرج وأذني عن صوت. لم يعد لي في نهاية الأمر ما يمكنني القيام به فأسقط فيما يشبه القبو، أراقبهم من ثقب مفتاح وهم يغادرون بي.

الرسالة التي أرتني إياها تعود إلى هذه الفترة المضطربة من حياته.

كتب (ك) إليها: «القصة التي أكتبها الآن أتصور أنها لن تنتهي». كي ألخص لك الفكرة فهي بعنوان «كتاب الموت». أين تجري أحداثها؟ إلى الآن لا أملك فكرة واضحة، بالرغم من أنني أنهيت المدخل الذي يدور حول تصور بعض الكتاب والجماعات لفكرة الكتاب. لا أخفيك أشعر بالراحة وأنا أكتب، ولأول مرة أتخلص من حالة المراقبة والرعب الذي يلاحقني. تعرفين! أشعر بأنني سأنتحر إذا ما انتهيت منها، لذلك فأنا أحاول ألا تنتهي.

سألتها

ـ أكنت تصدقين أنه سينتحر؟

أجابت

ـ شعرت، لكنني لم أصدق شعوري؛ فهو يحب الحياة.

كما فهمت منها، فقد واصل كتابة القصة طوال أسبوعين، ثم انقطع فترة قصيرة وعاد إليها. ظلت القصة من غير نهاية، لكنه فجأة أنهاها وأرسلها إليها كي تقرأها.

قالت لي

ـ كونت مجموعة من الآراء لكي أقولها له.

وأضافت

ـ لكنه لن يسمع آرائي قط.

قالت ذلك ثم أجهشت بالبكاء

كتاب الموت

مدخلي لما سأحكيه لكم ليس جديدا، فقد اعتقد الكاتب الأرجنتيني الكبير (بورخيس) أن جميع الأدباء و الكتاب لا يكتبون إلا الكتاب ذاته، و أن كل جيل يعيد كتابة ما سطرته الأجيال السابقة، وحينما قرأ حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يغضب أو يندهش، بل أهدى قصيدة إلى حارقها، لماذا؟ لأنه سيأتي زمن آخر، يعاد فيه تأليف كتبها المحروقة ولا شيء سيضيع منها.

لم يكن بورخيس وحده الذي اعتقد هذا الاعتقاد، فمن العادات الأدبية لبعض الجماعات القول بذات فاعلة ووحيدة، لذلك من النادر أن تحمل كتبهم أسماء مؤلفيها، كما أن فكرة السرقات الأدبية لا وجود لها بينهم، وجميع مؤلفاتهم ينسبونها إلى مؤلف مجهول يعيش خارج الزمان.

كتاب الموت الذي سأتحدث عنه، مثله مثل أي كتاب تسكنه كتب أخرى كأرواح غامضة، لكن لا يعني هذا أنه كتاب يفتقد الأصالة، فهو مثل أي كتاب لا يستطيع أن يقوم بشيء سوى تقليد ما كتب، أو

تقليد الموت الذي يحدث أمام أعيننا مرارا و تكرارا، قد يكون مؤلفه مخلصا وصادقا في طريقة تأليفه، وتبويبه و لغته، لكنه في الأخير ليس سوى تناسخ، و تجميع لأفكار و مقترحات وردت في كتب أخرى، أو حدثت فعلا في الواقع.

بدأت حكايتي مع كتاب الموت، حينما عثرت عليه صدفة في (سوق الصواريخ) وهو سوق يمثل صورة ملموسة للفوضى، حيث الكتب مرصوصة إلى جانب الأقمشة والملابس والمواد الغذائية والخردوات، و أشياء أخرى فائضة تلقي بها إلى هناك بيوت الأثرياء ومتوسطي الدخل حيث يجتمع كل شيء في إطار مشهد واحد.

في هذا السوق أجد ما لا أجده في مكتبات جدة، حيث توزن الكتب وتباع ككتاب دلائل الإعجاز للجرجاني الذي يزن كيلوجرامين، وكتاب الخصائص لابن جني الذي يزن ثلاثة، وكتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني الذي يزن عشرة، أما الصحاح الستة فهي أثقل من أن توزن، كتب ثقيلة، يكفي أن يحمل البائع بعض أجزائها، ويضعها في راحة يده، ثم يرفعها و يخفضها، مشيرا إلى ثقلها الذي يتساوى مع ثقل مضمونها لا مع ثقل أوراقها، وهو ثقل يعتد به في نظر البائع والمشتري.

فيما أنا أتردد على هذا السوق نمت علاقة متينة بيني وبين أحد بائعي الكتب، ذات يوم سألته: من أين تحصل عليها؟ كان هنديا يتكلم لغة عربية مكسرة، وبصعوبة فهمت منه أن مصادر الكتب متنوعة: شخص يبيع مكتبته بسبب ضائقة مالية مفاجئة، ورثة يبيعون

مكتبة موتاهم. بعض موظفي وزارة الثقافة والإعلام المسئولين عن الكتب يبيعون النسخ التي يصادرونها.

كنت أزور السوق مرة في كل أسبوع، وبمرور الأيام و الأسابيع تناقصت فرحتي بالحصول على كتب جديدة، لكن بعد فترة انقطاع، وفي محل هذا البائع تصفحت بعض الكتب، لم تكن كتبا جديدة، وكنت أتصفح من باب الفضول كتبا قرأها أجدادنا بمتعة نادرة، وباعتبارها كتبا جديدة. قطع البائع تصفحي إذ وضع أمامي (كرتونا) كبيرا مملوءا بالكتب، وأشار برأسه كعادة الهنود، ففهمت أنها كتب جديدة.

شرعت بلهفة في الاطلاع على عناوين الكتب، انطباعي الأول أنها جزء من مكتبة دينية: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، البرهان في علوم القرآن للزركشي، العواصم من القوا صم لابن عربي، وصحيح البخاري. وفيما أنا أفرغ الكرتون من الكتب تغير انطباعي، إذ وجدت بعض الكتب الشعبية: سيرة الزير سالم، رأس الغول، ونسخة من ألف ليلة أصدرتها دار صادر مصورة عن نسخة بولاق. أعدت رص الكتب متصورا مزاج بائعها، لاشك أنه مزاج عكر مثل سماء تلك الليلة التي تكسوها الغيوم.

كانت الكتب الدينية في عدة مجلدات ماعدا صحيح البخاري، دفعني الفضول لأن أعرف الجزء ولم أجد ما يشير إلى ذلك على الغلاف الخارجي، فتحت صفحة الغلاف الداخلي،فوجدت معلومات عامة، الجزء الثاني من صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله

محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي أمير المؤمنين في الحديث، وفي هامش كتاب الجنائز كتاب الموت لأبي عبدالله فاضل بن عبدالله بن محمد بن حسن آل سفر الخليعي غفر الله له و لوالديه.

مفاجأة مدوية أن يتجرأ أحد ما ويكتب كتابا في هامش صحيح البخاري، الكتاب الذي يوصل إلينا أحاديث من مصادر قالتها حقا، حملت الكتاب وقد وُلدت خطيئة الخليعي الرعب، خطيئة أن يكتب كتابا في هامش كتاب البخاري أفضل كتاب بعد القرآن. في الطريق كنت أفكر: لقد فعل المستحيل، وما هو مستحيل ليس تأليف كتاب عن الموت في هامش كتاب عن الجنائز، إنما الصفحة التي يمكن أن يتجاور فيها كتابان، في صفحات كتاب الجنائز من صحيح البخاري، وهو مكان لا يخطر على بال أحد.

عاش أبو عبدالله فاضل بن عبدالله الخليعي في القرن السادس الهجري، ولد وعاش في قرية من قرى الشام اسمها خليعة، بدأ شاعرا وقال قصائد لم يستحسنها أحد فغادر الشعر نهائيا، أعجبه نظم الأحاجي فامتهنها، ولا يبدو أن في حياته ما يلفت النظر حتى أن كتب التراجم لا تكاد تذكره، وإن ذكرته ففي سطور قليلة تحت لقب (صاحب العُتم)، أما العلماء الذين أتوا بعده فلم يعيروا كتابه أي اهتمام، ولم يحفظوا لنا من أشعاره وألغازه إلا القليل.

فيما أنا أتتبع نتفا من سيرته، تعجبت من طريقة موته التي أوردها مؤلف كتاب (الذي يقول الحكمة حكمة كاسمها) و من الكيفية التي واجه بها الموت، حيث جاهد على ألا يحرمه من قدرته على

التواصل، واستمراره وهو جثة هامدة في الحياة، من أجل أن يبلغ الناس رسالة في منتهى الأهمية، حكاية موته عجيبة، سأحاول أن أكون أمينا على سردها، لكنني أشعر من الآن أنها مغرية بالتوسع وإضافة بعض التفاصيل.

تبدأ حكاية موته من أطراف قرية خليعة حيث نبتت شجرة عُتم، في البداية لم يكن لدى الحياة ما تقدمه إليها إلا النجاة من وطء أقدام الرعاة، ومن أفواه أغنامهم، وقد ظنت هي أن هذا فعلا هو أقصى ما يمكن أن تقدمه الحياة إليها.

لم يكن لدى هذه الشجرة أي أحلام في الصعود إلى أعلى، فقد ظنت نفسها عشبة تتمدد على الأرض، لكن بعد السنة الأولى لاحظت أنها أطول من أعشاب متعددة ولدت معها في يوم واحد، وأنها تتعرض قبلها للشمس والرياح، الأمر الذي أعطاها أملا في الصعود إلى أعلى كالإنسان.

في صباح أحد الأيام لاحظها الخليعي، كان قد اعتزل الناس برعي الغنم، لاحظ أن الشجرة نبتت بعيدا عن أشجار العتم، وأنها نزقة وأشد خضرة من مثيلاتها، فيما بعد أصبح صديقا لظلها يقول الشعر وينظم الأحاجي ويقرأ الكتب.

مرت سنوات شبابه ولم يبق له سوى سنوات الموت، فأرهفت أفعى رأسها وناسلت بعضها من بعض، وبعد لحظات جفلت كائنات القرية من صرخة كصرخة من يشوى حيا، أعقبها صمت عار وهدوء شديد، وفي المساء حملوا الخليعي، وتلاشى سر قبل أن يعرف

ويعلن بين رجل و شجرة عبر عنها الثعالبي في يتيمة الدهر قائلا: كان الخليعي لا يكاد يفارق شجرة عتم، حتى قيل عنه صاحب العتمة.

قبل أن يغسل ويكفن، استيقظ فضول المغسل على انقباض كف الخليعي، لم يزل فضول المغسل إلا ببسط كف الجثة، دارت معركة بين المغسل وبين الجثة: الجثة تحرص على كتمان سرها، والمغسل يريد أن يطلع على السر، كانت المعركة غير متكافئة، فالمغسل سيستخدم كلتا يديه، في حين أن إحدى يدي الميت لن تسعفه في شيء. وبعد جهد استطاع المغسل أن يكشف السر (كتاب الموت) بخط لا يكاد يقرأ.

حينما طالعت كتاب الموت وجدته غفلا من جهة النشر أو تاريخه، ويقع في إحدى وستين صفحة وهو عدد محكوم بعدد صفحات كتاب الجنائز للبخاري، ومبررات تأليفه التي تضمنتها المقدمة منطقية حيث يسرد الخليعي أنه قرأ كتاب البخاري أكثر من مرة، وعلق قراءته أكثر من مرة من أجل أن يتفكر في أسماء رواة الأحاديث الذين ذكرهم البخاري.

في فقرة من أجمل فقرات المقدمة يقول: إنهم الآن بلا أعمار، لأنهم موتى، والموتى لا أعمار لهم، هادئون و مسالمون، لأنهم في المقابر، وفي المقابر يخيم الهدوء والسلام، بلا ذاكرة، فإن تموت يعني أن تنسى كل شيء، لقد دعاهم الموت فلبوا النداء، وكل إنسان منا مدعو ذات يوم إلى الفناء والتلاشي في كنف ظلمات الزمن.

يتابع في المقدمة قائلا: إنه أحب كتاب الجنائز، وقد حفظه كاملا

عن ظهر قلب، وهو مستعد لأن يتلوه في أي لحظة، لأنه يذكره بموته ذات يوم، و إلا كيف يمكن الإحساس بأنه حي فما يجعلنا نموت هو أننا أحياء.

الدليل الذي يقدمه على ذلك هو أن الموت لا يوجد في عالم الأشياء الجامدة، لكن ما يقلق الخليعي هو أن البشر لا يستطيعون أن يموتوا مثلما يريدون، فاختيار لحظة الموت ليست منوطة بهم، ولا يوجد ضمان يكفل للبشر أن يموتوا مثلما يريدون. هل تستطيعون أن تتصوروا أن البشر - ومنهم أنا وأنتم - لا يعرفون تاريخ موتهم.

ثم يسرد الظروف التي دفعته إلى تأليف الكتاب، فقد اجتاح الطاعون قرية خليعة، ونجا هو نفسه منه بأعجوبة، و قد أتاحت له الظروف الفرصة لمراقبة الناس وهم يموتون فوق ما أتيح لأي إنسان آخر أن يراهم في ظروف عادية، وقد صور لنا هذيان مريض يحتضر، قال: أخذ يهذي مثل مجنون سعيد، يشير بيديه ويسرد، كان الحاضرون يستمعون إليه مندهشين، وتكون عندهم انطباع أنه يرى مشاهد وصور ما بعد الموت، لكن فقيه القرية نهره قائلا «أنت تهذي، الموت يحولك إلى هذيان».

لم تكن هذه التجربة لتمر مرور الكرام، فقراءة كتابه تعلمنا أنه يستقي معظم أفكاره من مشاهداته وتجربته، يصقلها و يستوعبها ويتأملها بذهنه المتقد. يعرف أن الحياة مثل العزاء عملية قصيرة جدا، فخرج من تجربة موتى الطاعون بما يمكن أن أسميه (عدل الموت) فطبيعة الموت كما يقول (طبيعة كلية) وهو سيد المساواة

يتساوى عنده الغني والفقير، الصحيح والسقيم، الكبير والصغير، وكما أن أحدا لا يمكنه أن يتلبس جسدا غير جسده، فليس في مقدور أحد أن يموت عن الآخر.

اعترف أنه نجا من مرض الطاعون، لكنه اعترف - أيضا - أنه سيموت، ومع ذلك فهو يعيش كما لو أنه لن يموت، تأمل حاذق في قلق الإنسان حيال يقين الموت أو عدم يقينه، مستدلا بتتابع التوكيدات في قوله تعالى «ثم إنكم لميتون» وبموقف عمر بن الخطاب من موت الرسول حتى أنه خرج موقف عمر تخريجا لا تنقصه الفطنه. قال: إن عمر لم يكن ليفاجأ بموت الرسول وما كان له أن يفاجأ وهو الصحابي الجليل، والخلاصة هي أن حقيقة موت الرسول لم تفا جيء عمر بل الظروف العادية المصاحبة لموته.

لم يكن يخفي تردده في تأليف كتاب الموت في هامش كتاب الجنائز، وقد أخبرنا أنه مكث شهورا يقدم رجلا ويؤخر أخرى، وفي لحظة صفاء تحت شجرة عتم، فكرفي أن الله عدل في قدره، حكيم في تصرفه وتدبيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن و أن ليس من حقه أن ينكر على الله أن يكون كتب قدره، وأن يكتب كتابا في هامش كتاب الجنائز، ومن ثم يجب عليه ألا ينكر على الله كمال قدرته وعلمه في أن يخرج هذا القدر، فاطمأنت نفسه فكتب هذا الكتاب.

يبدأ الكتاب بحادثة كان الخليعي شاهدا عليها: في السنوات التي تلت عام الطاعون، نظم أهل القرية مجازر شنيعة ضد الأرانب،

حكاية بسيطة في الواقع لكنها غير معقولة، مجزرة منسية لا أهمية لها عند المؤرخ، لأن لديه ما يكفي من العنف لكنها ذات دلالة رفيعة عند الخليعي، إذ ينطلق قتل الأرانب من تصور لعلاقتها بالموت في إحدى الحكايات الشائعة في القرية، تقول الحكاية إن القمر أرسل أرنبا إلى البشر ليعدهم بالخلود. كانت الرسالة تقول: «كما أني أموت وفي مماتي أحيا، كذلك أنت ستموت وفي مماتك تحيا» لكن الأرنب نسي وبلغ الرسالة محرفة «كما أني أموت وفي مماتي أفنى كذلك أنت ستموت وفي مماتك تفنى» صحيح أن القمر قد عاقب الأرنب بشق شفته لكنه عقاب غير شاف إذ يفنى البشر أولا بأول أما شفة مشقوقة فقد بقيت.

ما كان لهذه الحكاية أن تمر عليه من غير أن يدحضها، فأهل القرية يتصرفون كالأطفال الصغار الذين يغسلون بطونهم تاركين ظهورهم من غير أن يمسها الماء، وهم لا يختلفون في جهلهم بحقيقة الموت عن جهل الأرانب التي يقتلونها.

من وجهة نظره الجميع: أهل القرية و الأرانب سيتساقطون كما يتساقط اللحاء عن الشجرة، الله هو الذي خلق الموت وهو وحده الذي سيبقى، وموت البشر والأرانب هو تجلي هذا الموت المخلوق، ومن يؤمن بالله يتعين عليه النظر إلى الله باعتباره النبع، و إلى موت الكائنات باعتباره التجلي، وعند العاقل اللبيب الذي يدمج على نحو سليم النبع والتجلي تغدو الحياة شيئا تافها فيا غباء البشر الذين يعتقدون في أرنب. مشكلة الموت كما يشخصها تكمن في أن

الموت من الأشياء التي لا تفهم إلا مع مرور الزمن، فالطفل الصغير يظل غير قادر على تصور الموت حتى يكبر، وقياسا على هذا فالبشرية ظلت فترة طويلة غير قادرة على تصور الموت.

في البداية تصورت البشرية الميت متمتعا برغباته البشرية، وفعل الموت يقتصر على منع الميت من الاتصال بالحي، وبعد فترة وبتأثير من الحكيم (عيفان) الذي لا نعرف من هو، تصورت أن الإنسان اسما وروحا، وعقب الموت يغادر الاسم الجثة، ليخترم جسد امرأة حبلى ليولد من جديد.

فيما بعد وصلت إلى مرحلة من التطور النفسي والعقلي أكدت حتمية الموت، وهنا يعود الخليعي إلى حكاية قتل الأرانب قائلا «ما حدث من موت أهل القرية حدث للأرانب، موت رجل أو امرأة كموت أرنب، ليس للإنسان مزية على البهيمة أمام الموت، كلاهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، خلق كلاهما من التراب وإلى التراب يعودان».

يتوقف الكتاب عند الزمن ويقول: لولا أن النصوص شهدت بوجود الموت لقلت إنه الزمن، ولا يفوت تصوره للزمن من غير أن يستثمره، فالزمن يقتضي التغير، والتغير يعني الفساد والانحلال، الإنسان عاش في عصر كانت الأرض سخية في عطائها، والحياة أيسر، والناس أنقياء وأطهار «لكن فيما بعد تغير الزمان، حتى كل عن وصفه اللسان، فأمسى خرقا بعد حداثته، شرسا بعد لينه، يابس

الضرع بعد غزارته، ذابل الفرع بعد نضارته، قاحل العود بعد رطوبته، بشع المذاق بعد عذوبته.

تغير الزمان تبعه تغير الناس، يتابع الخليعي: فلا تكاد ترى لبيبا إلا ذا كمد، ولا ظريفا واثقا بأحد، فما بقي من الخير إلا الاسم، ولا من الدين إلا الرسم، ولا من التواضع إلا المخادعة، ولا من الزهادة إلا الانتحال، ولا من المروءة إلا غرور اللسان، فالحذر الحذر من الناس، فقد أفل الناس وبقي النسناس، ذئاب عليهم ثياب، عن استنصرتهم خذلوك، وإن استنصحتهم غشوك، إن كنت شريفا حسدوك، وإن كنت وضيعا حقروك، وإن كنت علما ضللوك وبدعوك، وإن كنت جاهلا عيروك، أن نطقت قالوا مهذار صفيق، وإن سكت قالوا بليد، وإن تعمقت قالوا متكلف متعمق، لهذا كله فقد نجوت منهم برعي الغنم، وصحبة شجرة عتم» و في هذه العزلة تأمل الخليعي الزمن وعلاقته بالموت.

مبدئيا الزمن لا يكبر البشر إلا بساعة واحدة ولهذا يمكن تأمله، لقد خلق الله آجال الناس في الساعة الأولى من آخر ثلاث ساعات من يوم الجمعة، وفي الساعة الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة، لذلك فالزمن ولد قبلنا بساعة واحدة ليس غير. كان الخليعي يجد صعوبة في تصديق أن الزمن استطاع أن يسبب ضررا ليس في حياة البشر إنما في العالم أيضا.

بدأت علاقة الزمن بالموت من هبوط آدم إلى الأرض، حيث تدفقت الحياة كالربيع، وعاش سكان الأرض في عيد سعيد، لكن

زمنا كالموت أو موتا كالزمن اقترب من الموائد السعيدة فقذف فيها الخوف والألم والدموع، بعدها اشتغل البشر بالحزن الذي يثيره الزمن بمقدم الشيخوخة، وبكوا بفعل الموت سقوط أجيال البشر كسقوط أوراق الشجر، لقد أنجز الزمن والموت مهمة تليق ببشر ضعفاء يتهاوون كالرقاق الهشة.

أدرك أنني أعيد صياغة ما كتبه الخليعي، كما لو أنني أقبل العلاقة التي يود إقامتها بين الزمن وبين الموت، أنا أقبل هذه العلاقة، لكن ليس بين الزمن والموت، بل بين تصور البشر للزمن الذي أثر على تصورهم للموت.

تصور البشر أن الزمن يسير في خط مستقيم أسهم في تصورهم حتمية الموت، أما تصورهم أن الزمن يسير بصورة دائرية فقد أسهم في تصورهم أن الموت ظاهرة عضوية ليس غير. الدائرة تعود إلى نقطة بدايتها، ليس لها أطراف تنتهي عندها، ومن ثم فهي تلغي مشكلة البداية والنهاية وتسلم بالديمومة اللانهائية للكون.

لا يكتفي الخليعي بحدود تأملاته وتجاربه، بل يعجب غاية الإعجاب بكتاب الموتى المصري (٣٥٠٠ ق. م) الذي يثبت أن الموت ليس جدارا نرتطم به في الظلام، وليس سحقا للكائن، بل هو متضمن في الحياة ذاتها، ومن ثم فملاقاة الموت هي على نحو ما عمل نقوم به باستمرار، لكن الموت في كتاب الموتى لا يعني الفناء، بل رحلة الروح الإنسانية في دار الخلود، وهي رحلة لا تقل بهجة عن رحلة الوجود.

أحيانا يحيل إلى ما صادفه من أفكار طريفة ومنها ما قرأه في (كتاب باني الهندي في أجناس الحيات وسمومها) حيث يحتوي الملدوغ في لحظات احتضاره الامتداد الخاوي للكون، ويتلقى انطباعا بأنه على تخوم عالم ملغز تم بصورة متعمدة توسيع نطاق أبعاده، ويشعر بأن هذا الفراغ الهائل يضم تمثالا على هيئة أفعى، يحجب عن ناظريه أفعى حقيقية هي التي عوقبت بسبب تواطئها مع إبليس، أفعى يعقد الغضب ملامحها غير المرئية.

لم يكن لدى الخليعي أي عوائق تمنعه من الوقوف عند تصور الفلاسفة (يسميهم حكماء) القدماء فالموت عند سقراط أفضل من الحياة، وعند أفلاطون انعتاق النفس من الجسد، وعند أرسطو خلود العقل، وعند سنكا (مؤدب نيرون) شيء جليل على البشر أن يتعلموه كي يموتوا هادئين، فمن لا يملك إرادة الموت لا يملك إرادة الحياة، وعند أوريلوس الموت لا يخيف بل المخيف هو خشيتنا من الموت، و عند أبيقور لا يعني البشر في شيء، إنه فناء الحياة وذلك أمر يمكن أن يستمتع به البشر. ويورد هذا القول لأحد تلاميذ أبيقور «سوف نرقد ولن نستيقظ ثانية، عندما تفارق الحياة تتخلى عن ألمك العنيف، وأسوأ ما يحل بك إن أصاب التقدير هو سبات عميق، وليل طويل طيب، موجود يفنى و موجود آخر يظهر، يتغير لكنه لا يضيع فالطبيعة تعطي و تأخذ» إن ما هو ممتع بعد هذا كله هو تعليق الخليعي «إن الطبيعة ترهب الفراغ».

في مقابل هؤلاء يتفحص الخليعي تصور الموت عند العرب

الجاهليين، فالموت عندهم لم يكن نوما يحفه الهدوء والسلام، وليس الوجود الأفضل والأسعد في الكون، لاسيما القتلى الذين يصبحون أشباحا لا تدب الدماء في عروقهم، أشباحا تهيم ضائعة في العالم السفلي يقابلها بومة بشعة على الأرض.

يتابع قائلا: في مقابل هذا التصور عرض الإسلام تصوره عن القتلى في الجهاد باعتباره ذروة الحياة وقمة اكتمالها. الشهيد يتمتع بحس رفيع واستعداد للتضحية، إنه عظيم وعظمته تكمن في تقبله لوضعه الإنساني بحس المسؤولية وبشجاعة صارمة في مواجهة الموت، ويختم هذه الفقرة قائلا: عظيم هذا الشهيد حينما يتقبل وضعه الإنساني لكن بإذعان حزين.

هل انتسجت من عرض كتاب الخليعي خيوط كثيرة؟ أي خيط علي أن أتشبث به كي أصل إلى النهاية؟ هناك خيط وحيد هو الاعتراف بأنني أصبت بإغراء كتاب الموت الخاص بي، ربما أكون معذورا فأسماء الذين أحبهم تتساقط من حولي كما يتساقط الطلاء شيئا فشيئا، أصبحت هذه الأسماء تعني واقعا منداحا إلى البعيد، واقعا أقل أهمية من أي حلم، مادة فائضة ألقى بها الموت إلى قاع ذاكرتي. كان حريا بي أن ألقى الموت منذ زمن لكن التفكير في أني سأموت يرعبني لاسيما الموت مع ألم جسدي مضاعف.

القصة التي لن يقرأ هو

. . . .

الطفل الذي كان

ذات ليلة وجدت رسالة في صندوق رسائلي الذي يوفره المنتدى لأعضائه. كانت رسالة لطيفة، ومن بين أشياء طلبها مني، كتب المرسل «لا شك بأنك تتذكرين ك». أتذكر (ك) بالتأكيد. كيف لا أتذكره؟! كانت ملاحظتي الأولى أن اسمه لم يكن (ك)، لكنه قال: إنه رمز ملائم لكي يخفي اسمه الحقيقي.

الآن أفضل ألا أحكي لكم تفاصيل ماجرى، وسأكتفي بما له علاقة بما سأحدثكم عنه.

كان مرسل الرسالة قد طلب مني مقابلته، بعد أن قابلته، هناك فكرة واحدة سيطرت علي: متى ينتهي اللقاء؟ لكن في الوقت ذاته لم أكن أعرف ما الذي سأقوم به؟ الآن أعرف؛ سأنفذ ما طلبه مني، سأكتب عن (ك)، وسأرسل ما كتبته إليه، ربما يجد فيها ما يستحق أن يلحق بالكتاب الذي سيصدره.

مسألة أنني انفجرت بالبكاء حالما سمعت عن انتحار(ك)، مسألة أثارت شكوك زوجي. لقد استمر بكائي ذلك اليوم، واليوم الذي

يليه. اختلقت أسبابا عديدة، لكنني شعرت أنه يعرف أن هناك ثغرات فيما اختلقته. ليته يعرف أننا نتأثر بموت من نعرف، فكيف لا نتأثر بموت من نحب، ليته يعرف أيضا أن «النساء وحدهن يعرفن كيف يكون الحب».

حرك انتحاره صورا كثيرة في ذاكرتي. هناك صورتان ما انفكتا تطاردانني؛ أول صورة تكونت من ابتسامته الرقيقة والبيضاء، من حضوره الرقيق الذي لا يكاد يلمح، من حزنه على طفولته التي لم يكن يدركها حينما كان طفلا. أما آخر صورة له في ذاكرتي فهي الصورة التي طفرت فيها عيناه بالدموع، لم أستطع تجاهل دافع داخلي للقرب منه فوجدت نفسي ألاطف خده بأصابعي.

ارتبطت هذه الصورة بلقائنا الأخير، في ذلك اللقاء سرد لي حكايته كأنه لن يحصل أبداً على فرصة أخرى مماثلة، تحدث معي كما لو كان آخر اعتراف له. كان يتألم مما يفعله، حتى أنني شعرت بأنه يحكي طلباً لتوبة لن يأثم بعدها أبداً.

الآن وأنا أستعيد ذلك اللقاء، كان صوته أول شيء رن في ذاكرتي. إن حكايته التي سأحكيها تجد معناها -إن كان لها معنى ـ في ذلك الصوت الذي بقي. أعرف أن ليس من مصلحة قلبي أن يقترب من ذلك الحزن الذي يعتمل في صوته؛ ربما لأن قلبي خاو بعد أن غادر؛ ليس قلبي فقط العالم كله خاو والحزن «يعشق الخواء. كل ما يريده هو أن يسمع رجع صداه».

وهو يحكي لي، كان يقفز من حدث إلى آخر، ومن شخصية إلى

أخرى. تبرز في ذاكرتي الآن ثلاث حكايات. كل حكاية تخلف أسئلة لا أجوبة عنها. أسئلة لطالما خشيت من أن أسأله لئلا أعرقل ما يبوح به؛ لذلك اضطررت إلى ضبط نفسي، و كما لو كنت ذلك الطفل في رواية (في بلاد الرجال) الذي يستمع إلى أمه جاهدت لأحتفظ في ذاكرتي بهذه الحكايات الثلاث، والأمل يحدوني في أن أتمكن ذات يوم بأن أفاجئه بأنني أكتب قصة بطريقته التي سحرتني وجذبتني إليه.

ربما علي أن أعترف بخوفي في تلك الليلة، وليال كثيرة أخرى كما هي ليالي ذلك الطفل، لكنني ما رغبت قط في أن يتوقف. هل كانت حكاياته الثلاث حكايتي؟ حكايات ربطتنا معا منذ تلك الليلة. جعلتنا كائنا واحدا «نصفي روح واحدة، صفحتين من كتاب واحد» كما اعتادت تلك الأم قوله لطفلها في تلك الرواية التي أهدانيها في تلك الليلة.

في تلك الليلة بدأ حكايته بأبيه.

قال:

ـ لا أستطيع أن أتخيل وجهه في هيئة غير تلك التي هو عليها، فكه الأسفل المرتخي قليلا، عينيه المغمضتين، والسحل الذي في خده، فقد سيطر الرعب عليه كأنه وسط فاجعة.

وأضاف

ـ أتذكر كما لو حدث بالأمس، أن أول ما فكرت فيه أن أحكي لابن جارنا عن جمجمته المعصوبة بخرقة بيضاء تشبعت بالدم، عن

ثوبه الممزق، وجزؤه الأعلى العاري، والمعفر بالتراب، عن قدميه الحافيتين، وحذائه المقلوبة أسفل عتبة الباب.

الانطباع الذي مازال يحتفظ به إلى تلك الليلة أن بيتهم بني من أجل أبيه

قال:

ـ لقد عانيت منذ صار لي ذاكرة من تجهماته، نظرة واحدة إلى ذاكرتي تكفي لأن أتنبه إلى كل تفاصيل غضبه، لاسيما عيناه التي يتفرسني بهما، فلا أجرؤ على أن أبادله النظرات، بل أحني رأسي وأتوقف عن الكلام.

ومضى يقول:

ـ لحظات كثيرة شعرت بأنه يكرهني، لكن أمي كانت تطور لدي اتجاها إيجابيا نحوه، دائما ما تقول لي: إنه يحبك، لكن هذه عادة الرجال، يظنون أن إظهار الود للأبناء علامة الضعف.

غير أن أفضل ذكرياته عن أبيه حينما يمرض.

قال

ـ مرة استلقى إلى جانبي، كان هناك مودة تحيط بجسمي كله، وهو ينظر إلي شاهدت في عينيه حزنا لا علاقة له بهذا العالم، شعرت بحرارة أنفاسه في وجهي، لأن وجهه قريب من وجهي، نكاد نتلامس، ضمني إلى جسده، ولم يكن في حاجة إلى أن يفصح عن حبه لي.

هيمنت عليه إحدى الذكريات.

قال:

ـ وأنا في حضنه أدركني إحساس لم يراودني من قبل، إحساس الارتباط الفطري، الحبل اللامرئي الذي يربط بين ابن وأبيه، لم أكن أستطيع التعبير عن هذا الإدراك، لكنني كنت أدركه في أعماقي، في تلك اللحظة شعرت أن أبي ليس إلا أنا وأن أنا ليس إلا أبي، وأنه استلزام البداية وأنا امتداد له.

غسلوا أباه وكفنوه وجاءوا بأمه لتودعه، أسندها اثنان من أخواله، كل منهما أمسك بها من جانب، مشت بينهما بخطى متعثرة وبطيئة ومتعبه حتى وصلت إلى لحظة خاطفة يوفرها آخرون لشخصين يلتقيان آخر مرة. وضعت كفيها على وجهها وأجهشت باكية أعلى جسد ملفوف ومسجى.

كما شرح لي لم يكن بكاؤها ندبا أو نواحا لذلك لم أتمكن من إرجاعه إلى حدث مادي وملموس. لم تلمس أباه أو تقبله مثلما فعل بعض الرجال، فقد حذرها الفقيه من أن تفعل ذلك.

قال:

ـ شعرت بحزن؛ لأن في كلامه معها مقدارا من الفظاظة لا يتلاءم مع الحزن الذي يلف الموقف.

قطعت أمه نشيجها وتماسكت، لقد تقبلت موته كما تتقبل الحقيقة من غير أن تسأل عن مدى صدقها أو زيفها، توسع صمتها ليشمل الحاضرين.

قال:

ـ لأول مرة أعرف أن الأحياء عاجزون عن فعل شيء للأموات.

لم تكن تلك الحكاية الوحيدة. كانت هناك حكاية أخرى؛ ففي الخامسة من عمره أرسلته أمه إلى المدرسة.

قال:

ـ فرصة تهيأت كي تضمن لي ولأخواتي وجبة غداء؛ فالفقراء ليسوا أكثر من وجبة واحدة.

على امتداد ست سنوات كانت أمه تقف طرف الساحة، وتظل واقفة ترقبه حتى تبتلعه منعطفات القرية وأشجارها. أنهى المرحلة الابتدائية، و أراد أن يذهب إلى أقرب مدينة لإكمال تعليمه.

قال:

ـ لم تكن أمي تريدني أن أذهب. تقول: مازلت صغيراً على الغربة. لكنها وافقت تحت ضغط المكافأة التي تصرف للمغتربين.

حزنت، لكنها تماسكت إلى أن حانت لحظة الوداع.

قال:

ـ ذهبت معي إلى طرف القرية، في البدء لم أشعر بشيء، لم أكن حزيناً أو خائفاً؛ ليس لأني كنت شجاعاً بل لأنني لم أكن أشعر بأي شيء.

حينما وقفت آخر مره قالت:

ـ كن رجلاً

قال:

ـ تفحصتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ثم ابتسمت ابتسامه رقيقة، غالت في ابتسامتها إلى حد القنوط، ثم القنوط ذاته الذي يقود إلى المغالاة.

حين هدأت قالت:

ـ يا مفخرتي بك أمام نساء القرية.

قال:

ـ شعرت بأنها تحمل شيئاً أكبر من حمل نفسها.

أضاف

ـ حضنتني، ولم تتكلم، غير أن صوت وداعها كان يأتي من السماء، و من صدوع الأرض، ومن حفيف أوراق نباتات القرية وأشجارها.

انحدر من أعلى تل، وانعطف يميناً فلم يعد يراها. كان وحيدا بعيداً عنها وعن أخواته مثل أي نجمة في السماء، عندئذ بدأ يدرك ما يحدث فتفجرت داخله موجة من الحزن. كان حزنه مقدمة لخوفه؛ فقد ابتعد عن قريته التي يعرفها شبراً شبراً، ابتعد كأعمى خائف شرع هو نفسه في تلمس طريقه.

قال:

ـ لم أكن أعمى البصر، بل أعمى عينين مغرورقتين بالدموع، وحين جفتا كنت أعمى عينين أغلقهما خوفاً مرة، أو من أجل حلم أبي، أو من أجل حب أمي مرات أخرى.

قبل المغرب استقبله أبناء قريته، لم تكن مدينة لكنها أكبر من قريته، وفي الصباح الباكر نهض متثاقلاً، لم يسمع صوت أمه تدندن أثناء تكنيس الساحة، ولا صوت أخواته، وهن يتهامسن بالقرب منه. تذكر قهوة أمه الممزوجة بالهيل، وللتو عرف أن العادة جرت هنا بأن يحضر أحدنا براد حليب، وبعد الفنجان الثاني كنت أتأبط أوراقي ذاهبا إلى المدرسة.

في الطريق رأى أحد الباعة يقف خلف عربة صغيرة مملوءة بالبرتقال. كان المارة يشترون عصير البرتقال بقرشين، و كان البائع بارعاً في تقطيع البرتقالة إلى نصفين، و في ضغط كل نصف على آله أمامه، هبطت به رائحة البرتقال إلى ذاكرته، ونجحت في استدعاء ذكرى منزوية: في مدرسة القرية كانوا يعطونه برتقالة كل أسبوع،تقسمها أمه أرباعاً بينه وبين أخواته وتأكل هي القشر. ارتفع من دهاليز ذاكرته بعد أن اكتمل مخططه.

يوم الأربعاء استيقظ باكراً من فراغ صبره، فرحاً لأن مخططه سيكتمل في ذلك اليوم، اقترض من أحد أبناء القرية واشترى كيلو برتقال.

قال:

ـ في بيتنا كانت أمي سعيدة جداً، كانت تضحك، لم أرها هكذا قط، كان يوماً لن أنساه أبداً، يوماً مازال يولد في داخلي أسعد نهار في أحلك الليالي.

هناك حكاية ثالثة تحكمت في مجرى حياته، حكاية لم تنفك تطفو

في ذاكرته بين الحين والآخر؛ فبعد أن عاد، وفي بداية الأسبوع الثاني مرض: حمى، خمول في الجسم، رشح، تحامل على نفسه، وفي اليوم الثالث كان مريضاً فعلاً، شاهده مدير المدرسة فأذن له بالانصراف، حمل كتبه وبعد مسافة ليست طويلة عجز عن متابعة السير، فتكوم على نفسه في ظل شجرة. كان متعباً، وفي غاية الضعف وكان العالم يتسع من حوله إلى حد لا يعود الإمساك به ممكناً.

قال:

ـ يبدو أن الله كان معي، فقد سمعت صوتاً يقترب مني، رفعت رأسي وذهلت من فتاة واقفة، كانت جميلة. أعرفها فهي ابنة أحد جيران المدرسة، كانت أكبر مني وفارق السن يصل إلى عشر سنوات.

اقتربت منه وسألته عن حاله

قال:

ـ لم أكن هادئاً لأنني كنت أتوقع أن أقول كلاماً لا يعجبها.

بعد كلمات قليلة ارتبك في موضع عميق من كيانه، استهلك نفسه فتجمدت الكلمات على شفتيه، ثم ساد صمت عام، وهدوء شديد، وتلاشت إجاباته قبل أن تعلن أو تفهم.

قال:

ـ كنت كتمثال بقي على حالة منذ سنين.

طأطأ رأسه خجلاً فوضعت سبابتها تحت ذقنه، ورفعت رأسه. ابتسمت فشاع في روحه جو من الارتياح، شجعته على تحمل المرض قالت

ـ لا تقلق، إنه مجرد ألم مؤقت.

قال:

ـ كانت كلمات تشجيعها تصويرية ترسخ مباشرة في ذهني، وحينما غادرت بكيت من شدة الكرة، وشدة الحب الذي استحال إلى عجز كبير. اختلطت علي الأحاسيس، ولم أجد فيها ما يعبر عن عذابي أو سعادتي.

استدعى سلوكها معه نبش كلمة قديمة، مدفونة، غير مألوفة ومستحيلة الصياغة، كان وجهها ينفلق ويتضاعف مراراً، يتبخر، ينتشر، يتقارب ولا رابط بين هذا كله سوى حلم عابر. كان يشعر بالغبطة؛ لأنه شرع في حياة جديدة، في عالم تصوره مملاً ورهيباً.

قال:

ـ وأنا أعود إلى البيت، كنت أقوم، وأسقط، وأغني؛ فالدنيا التي اعتبرتها بائسة، يوجد فيها جمال هائل، ومذهل إلى هذا الحد.

في اليوم التالي لم يشف تماماً، كان يمكن ألا يذهب إلى المدرسة، لكنه تحامل على نفسه؛ من أجل أن يراها.

قال:

ـ وعلى امتداد الطريق كنت خفيفاً كريشة.

قبل المدرسة بمسافة قصيرة رآها واقفة تراقب باهتمام أحد المعلمين، كانت تبحث في وجهه عن شيء ما، وكان هو يبحث في وجهها عن الشيء ذاته، في البداية لم يكن تفكيره يتجاوز حدوداً مرسومة لكن ابتسامتهما المتبادلة محت هذا الحد.

قال: أول درس تعلمته أمس هو أن الحب يكشف عن نفسه تلقائياً.

حينما دلف إلى الصف كان يحلم، يدخل إلى أحلامه، ويخرج بلا رقابة.

قال:

ـ حلمت بها لي وحدي، وقام خيالي بتعويض ما ينقضي من أجل امتلاكها.

استحضر ما فعلته معه، ذكرى سعادة تميز ما حدث له أمس، عما تخيله اليوم. كان حراً في أن يتخيل ما يشاء، لكنه مقيد لا يتذكر إلا ما جرى فعلاً، تخيل أنها له وحده، لكنه تذكر أنها لم تكلمه، استحضرها وعاتبها على فعلتها. كان يلومها، لكنه كان لوماً في غير محله. كانت تحاجج بذهن متقد، وكان عليه أن يتلذذ بذكرى عابرة حدثت له

قال:

ـ لقد عرفت كيف تقتل وتحيي روحاً ما.

تكرر مشهد ابتسامتها له حتى بات مألوفاً عنده، ومع الوقت عاش

مطيعاً لهما يراقبهما من بعيد، يراقب ما لهما وما عليهما، مطمئناً على أمل ألا يمتعضا، وخائفاً من أن يكونا قد امتعضا. تمسك بها كتمسك النائم بحلم جميل، لم يدرك قط أن كل ما توهمه زائف، وأن الذي كان منها قد انتهى إلى الأبد.

قال:

- لقد حكم علي القدر أن ألعب دور المتفرج لا أكثر ولا أقل.

في إحدى الليالي أخذ يفكر: كيف يمكن أن يبرهن لها أنه يحبها أكثر من المعلم؟ خطر في ذهنه أن يقدم لها هدية، لكنه لا يملك شيئاً، اهتدى إلى فكرة ما لبثت أن سيطرت على ذهنه: ماذا لو استيقظ في منتصف الليل، وقطف لها غصن ريحان من مزرعة جارهم؟ تسلل على أطراف أصابع، دقائق بعدها كان كل شيء على ما يرام.

قال:

- في الصباح حملت كتبي سعيداً؛ ليس لأنني أحمل هدية، بل على وجه الدقة؛ لأنني سأجعلها تحبني.

قبل أن يصل إلى المدرسة جمع شجاعته ولم يثنه ما يشاع عن هيبة أبيها وحدة طباعه، تخفى في ثغاء الأغنام، وفوضى توافد التلاميذ، وأخيراً وصل، بحث عن قوة ما في داخله أو حوله تخبرنه بما يفعل، بقي للحظات أمام بيتها كمصلوب يتفرج عليه الناس.

من حسن الحظ أنها خرجت.

قال:

ـ في منتصف المسافة بين حديثي وعدمه، كانت الكلمات تركض في ذاكرتي، تروح وتجيء، تظهر وتختبئ، بعض الكلمات جريئة تدنو من لساني، ثم تتجمد أو تتحول إلى لعاب ابتلعه بصعوبة، كنت واعياً إلى أنني لن أقول كلاماً مفهوماً، فاكتفيت بإعطائها غصن الريحان، كانت مشاعرها حيادية وكانت تنظر إلي بلا إحساس وبلا أي حياة، لا أدري كيف استنتجت هذا ربما لأن فينا زوايا غامضة لا تسمح إلا بدخول ذلك.

في الفسحة رأى غصن الريحان في يد المعلم

قال:

ـ كان المعلم يختلس النظر إلي مبتسماً ومنتفخاً كضفدعة.

كي يهدئ ما شعر به لجأ إلى خياله، أغمض عينيه، وتصور أنها تمسكه، تلعب معه، ترفعه إلى أعلى، انتقل بخياله إلى المعلم، وأخضع وجهه للعذاب البطيء على يد أشرار الحكايات التي سمعها من أمه.

قال:

ـ لم يحدث شيء في طفولتي لم يمحه النسيان، أو تتبدله الذكرى، بينما بقيت هي في أحلامي كملكة. آخر حلم كانت تمشط شعرها، غادرت ونسيت وجهها في المرآة.

وأضاف

ـ يا إلهي!! لقد أنبت خيالي عني.